القسم الثانى

الغرب والإسلام

- فى بريطانيا : صورتان للإسلام

١ – مسلمون بلا مشاكل .

٢ – سلمان رشدى نموذج لحملات التشويه .

- نظرية استعمارية جديدة .
- أهداف سياسية وليست دينية .
- جذور وأصول .
- تزوير التاريخ والتضليل الإعلامى .
- أسطورة أم حقيقة .

فى بريطانيا

صورتان للإسلام

١ مسلمون بلا مشاكل

قضيت معظم أيام زيارتى لبريطانيا فى زيارات وحوارات بحثا عن حال المسلمين وصورة الإسلام فيها . ووصلت فى النهاية إلى أن صورة الإسلام فى بريطانيا أفضل بكثير عما هى فى أمريكا ودول أوربية أخرى . وإن كانت الحقيقة ليس فيها صورة واحدة عن الإسلام ، ولكن هناك صورتان مختلفتان . صورة إيجابية تعكس الإسلام على حقيقته ، وصورة أخرى مشوهة أو مزيفة يقدمها أحيانا من يجهلون حقيقة الإسلام ، وأحيانا أخرى يقدمها من يتعمد التشويه بسوء قصد لأغراض مشبوهة .

الصورة الأولى ، الإيجابية ، هى الأكثر انتشارا .. رأيتها فى المركز الإسلامى فى جامعة أكسفورد ، وفى سماح الحكومة البريطانية بتدريس الدين الإسلامى فى المدارس للتلاميذ المسلمين ، وفى المسجد القديم الذى أنشىء فى بريطانيا عام ١٨٩٠ ، وفى تجمعات المسلمين القادمين من باكستان ، وبنجلاديش ، وهم الأكثرية ، ومن البلاد العربية وتركيا ، ثم فى ازدياد حجم المسلمين البريطانيين الذين ولدوا فى بريطانيا من أبناء المهاجرين . كما رأيتها فى وجود ٦٠٠ مسجد فى بريطانيا لكل منها إمام متفرغ ، وهى منتشرة فى لندن وفى المدن الصناعية الكبرى ، أما فى لندن فإن المسجد الكبير فى ريجنت بارك ومعه المركز الثقافى الإسلامى فهما من أهم المراكز الإسلامية فى العالم الغربى .

ليست هناك إحصائية رسمية دقيقة عن عدد المسلمين فى بريطانيا ، ولكن الأرقام التى سمعتها تقول : إن أقلها مليون ، وأقصاها مليون ونصف مليون ، أكثرهم من السنة ، وأقلهم من الشيعة ، وفيهم بعض مجموعات من طائفة الإسماعيلية أو الصوفية .

وفى وزارة الخارجية وجدت من يحدثنى عن أهمية الروابط التجارية والسياسية بين بريطانيا والعالم الإسلامى ، وعن بدء استقرار أول جماعة من المسلمين فى بريطانيا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وكان أول الوافدين من البحارة اليمنيين الذين أقاموا تجمعا لهم فى ساوث شيلدز على الشاطئ الشمالى الشرقى لإنجلترا ، وجاء بعدهم بحارة مسلمون ليستقروا فى الموانى الأخرى مثل ليفربول وكارديف وفى اسكتلندا .. ومنذ تلك الأيام تحولت بريطانيا إلى شعب متعدد الثقافات والأعراق ، يضم جالية من أكبر الجاليات الإسلامية فى أوربا الغربية ، فيهم الطلبة ، ورجال الأعمال ، والسياح .

* * *

وقال لى محدثى : إن الحكومة البريطانية تشدد على أهمية الاحترام والتفاهم بين بريطانيا والعالم الإسلامى ، وضرورة اعتراف الغرب بالقيم الدينية والثقافية والاجتماعية والإسلامية التقليدية ، وقال لى :

إن بريطانيا تحرص على الالتزام بمبدأ المساواة فى الفرص لجميع مواطنيها بصرف النظر عن ديانتهم ، أو لون بشرتهم ، أو أصولهم العرقية .. وليس هناك شكوى من التفرقة أو التمييز بين البريطانيين بسبب الدين . وقال أيضا : إن من بين المسلمين بريطانيين اعتنقوا الإسلام ، وقال لى : سوف تجد المسلمين فى كل المهن والقطاعات : منهم أصحاب متاجر ومعلمون ، وأطباء ، ومحامون ، ومهندسون ، وعلماء ، وهم مشاركون فى الحياة

السياسية وليسوا منعزلين ، ولهم دور فى المجالس البلدية كأعضاء منتخبين .. وفى لندن مصارف ومؤسسات تمويل يمتلكها عرب مسلمون .. وأرقام هيئة السياحة البريطانية تقول : إن أكثر من سبعة ملايين سائح من الشرق الأوسط يزورون بريطانيا سنويا ، بخلاف أعداد كبيرة من المسلمين فى الجامعات والمدارس .

وحدثنى ممثل الخارجية البريطانية عن الدكتور عبد الجليل ساجد من أشهر علماء المسلمين حاصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية وماجستير فى علوم القرآن وهو إمام مسجد ومركز برايتون الإسلامى فى جنوب شرق انجلترا ، وله دور ملحوظ فى المجتمع البريطانى ، وأنشأ مشروع المكتب الاستشارى للأقليات العرقية ، ومجلس تمثيل الأقليات العرقية الذى يضم ٥٨ مجموعة ثقافية ولغوية فى مقاطعة ساسكس ، بالإضافة إلى دوره البارز فى تأسيس المؤتمر الدائم لليهود والمسيحيين والمسلمين .

وقال لى ممثل الخارجية : إن حرية العبادة مكفولة فى بريطانيا ، والمسلمون يؤدون شعائرهم فى كل مكان ، ويجد المسلمون فى بريطانيا فى المركز الثقافى الإسلامى فى لندن التعليم الدينى ، والخدمات الاجتماعية والفتوى فى مسائل الزواج ، ويصدر المركز « المجلة الإسلامية » التى تصدر ربع سنوية وفيها دراسات علمية متعمقة عن الإسلام .

وقال لى أحد الأصدقاء المصريين المقيمين فى لندن : إنه ليست هناك مشاكل بين المسلمين والسلطات البريطانية .. ففى سويسرا مثلا مشاكل لأنهم لا يسمحون للمسلمين بإقامة مدافن خاصة بهم تدفن فيها موتاهم بالطريقة الإسلامية ، أما فى بريطانيا فإن مراسم الدفن تتم بالطقوس الإسلامية وفى المدافن التابعة لمجالس البلدية ، وأصبح البريطانيون يعرفون أن المسلمين يرفضون دفن موتاهم فى صناديق ، ولا يمانعون فى ذلك ، وخصصوا أماكن

محددة لدفن المسلمين ، بل قامت لجنة المساواة العرقية بإصدار كتاب للمسلمين الذين عاشوا طويلا بعيدا عن بلاد المسلمين يتضمن إرشادات عن دفن الموتى بالطريقة الإسلامية .

هذه بعض ملامح صورة الإسلام فى بريطانيا ..

وفى مقر كبير أساقفة كانتربرى قابلت مساعده كانون كولين فلتشر المسئول عن الحوار بين الأديان ، وكان الحوار دافئا ، بدأ بالحديث عن زيارة فضيلة الإمام شيخ الأزهر لبريطانيا وآثارها ولقائه مع كبير الأساقفة واتفاقهما على إقامة حوار بين الإسلام والمسيحية .. وقال لى : إن هذا اللقاء كان مهما جدا ، وإن شخصية شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى تركت أثرا عميقا فى نفوس كل الذين قابلهم ، وتحدثت الصحف ومحطات التلفزيون عنه كثيرا ، لأنه قدم صورة جميلة عن سماحة الإسلام واحترامه للعقل وقدرته على التعامل مع كل العصور وكل المجتمعات ، وبراءته من الجمود والتطرف والعنف .

وقال لى مساعد كبير الأساقفة : كيف نبدأ الحوار بين الإسلام والمسيحية .. فى بريطانيا هناك اتصالات بين الأساقفة ورجال الدين الإسلامى ، واتصالات أخرى بين الكنيسة الانجيلية والكنائس الأخرى ، وصور التعاون بين المسلمين والمسيحيين كثيرة حتى أنهم اشتركوا فى إرسال مساعدات إلى مسلمى البوسنة .. فالتعاون موجود ، ولكن الحوار بين الإسلام والمسيحية على مستوى بريطانيا كيف يبدأ .. الكنيسة لها تنظيم ، وتتعامل مع الأديان التى لها تنظيم مماثل ، ولكن المسلمين فى بريطانيا ليس لهم تنظيم واحد يمثلهم حتى يمكن إقامة الحوار معه .. ويخشى كبير الأساقفة إذا بدأ الحوار مع ممثلى بعض الفئات الإسلامية أن يؤدى ذلك إلى غضب فئات إسلامية أخرى .. والفئات الإسلامية عندنا كثيرة فمع من نتحدث ؟ .. مع السنة أم الشيعة أم الصوفية .. مع الباكستانيين أم العرب ؟ ..

وقال لى مساعد كبير الأساقفة : لقد أقام كبير الأساقفة حفل عشاء تكريما لشيخ الأزهر حضره ٦٥ من أكبر الشخصيات السياسية ورجال الأعمال ورجال الدين المسلمين والمسيحيين ، ولفت نظرنا جدا روح المودة الحقيقية بين شيخ الأزهر ورجال الدين المسيحى المصريين الذين حضروا ، كانوا قريبين من بعضهم ، ولفت الانتباه أن شيخ الأزهر يعرفهم ويحمل لهم مشاعر محبة حقيقية وهم يبادلونه نفس الشعور .. وهذا يعنى أن المسلمين والمسيحيين فى مصر إخوة بالفعل .. وفى هذا الحفل طلب كبير الأساقفة من كل رجال الدين الحاضرين أن يشاركوا معه بالرأى فى كيفية بدء الحوار بين المسيحية والإسلام فى بريطانيا ، وبدأت تصل إليه آراء ومقترحات من بعضهم .. ولا نعرف هل من الأفضل أن يتم هذا الحوار بشكل رسمى أو غير رسمى ، وكبير الأساقفة مهتم بأن يركز الحوار على القضايا المشتركة ، وليس على نقاط الخلاف . وشاركه شيخ الأزهر فى هذا الرأى ، وقال له : إن مثل هذا الحوار ليس الهدف منه إقناع المسيحيين بالدخول فى الإسلام أو بيان أن الإسلام هو الأفضل أو العكس .. فمثل هذا الحوار لا يجدى ولا يفيد ، وكل أصحاب دين متمسكون بدينهم ، وهذا أمر طبيعى ، ومقتنعون بصحة ما فى دينهم وإلا ما اعتنقوه ، واعتناق الدين لا يتم بالإكراه ، ولا بالإغراء ، ولكن مسائل الاعتقاد تتصل بالوجدان والضمير واليقين ، ولذلك فإن الأزهر يرى أن يكون الحوار حول البحث عن أفضل الوسائل للتعاون بين أصحاب الديانات .. يجب أن يتعاون المؤمنون بالله فى مواجهة موجات الإلحاد ومحاولات تخريب الأديان بدس الإرهاب والعنف بين المؤمنين بها ، لأن رسالات السماء لا يمكن أن تقوم على القتل والإرهاب أبدا ..

* * *

وقال لى مساعد كبير الأساقفة : إنه سيتم عقد مؤتمر كبير فى بريطانيا

فى العام القادم يحضره جميع أساقفة الكنيسة الإنجيلية فى جميع أنحاء العالم وسيحضره ممثلون عن الكنيسة المصرية ، وموضوع المؤتمر هو بحث زيادة التعاون بين الإسلام والمسيحية على المستوى العالمى .

وقال لى : نعم .. ما تقوله صحيح .. كانت هناك صراعات بين الأديان .. وكانت الحملات الصليبية من أهم حلقات هذا الصراع .. ولكن فى التاريخ فترات طويلة عاش فيها المسلمون والمسيحيون معا فى سلام .. واستفاد الجميع من فترات التعاون وأدركوا أن الصراع لا يفيد .. ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أنه ستبقى هناك دائما عناصر مسيحية وإسلامية سوف تنظر إلى العلاقات من زاوية عدائية لأسباب متعددة .. هناك صراعات ليست دينية ولكنهم يعطونها صبغة دينية لإثارة مشاعر الناس وكسب تأييدهم ..

وحين سألته كيف تنظر الكنيسة البريطانية إلى نظرية هنتنجتون عن صراع الحضارات وحتمية الصراع بين الإسلام والغرب قال : إن هذا التفسير للصراع الدولى مبسط جدا .. لقد أشار كبير الأساقفة فى لقائه مع شيخ الأزهر إلى نظرية هنتنجتون وقال : إن هذا الصراع ليس حتميا ، ويمكن تفاديه .. ونحن نقول : إن هناك بعض أمثلة لوجود توتر على الجانبين ، وظهور مشاعر عدائية هنا وهناك ، ولكن ذلك لا يعنى أن الصراع بين الإسلام والغرب حتمى ولا مفر منه كما يقول هنتنجتون .. بل إن ما نراه هو ما يجعل الحوار ، والتعايش ، والتفاهم ، مهما جدا فى هذه المرحلة من التطور السياسى الدولى .

وقال لى أيضا : إن كبير الأساقفة يدعو فى بريطانيا إلى معاملة الأقلية المسلمة معاملة حسنة ، ويركز على أهمية بناء الثقة بين المسلمين والمسيحيين فى العالم .. والحقيقة أن وسائل الإعلام تساهم فى إيجاد مناخ من عدم الثقة بين الجانبين .. حين تتحدث عن خطر الإسلام .. أو العداء للإسلام ..

أو معاداة المسلمين للمسيحية .. وهذا كلام سطحى وفيه مبالغات ، ولكنه يؤثر فى الناس ويخلق لديهم مشاعر سلبية .. أنا متأكد أن معظم الشعب البريطانى لا يخاف من الإسلام ولا من المسلمين ، ولا يشعر بمعاداة السامية ، ولكن الناس دائما لديها مخاوف من الأمور التى لا تفهمها ، ولذلك فإن التفاهم والمعرفة هما البداية لبناء جسور تعاون واحترام متبادل . الذين لا يعرفون الإسلام يشعرون بالخوف من هذا المجهول ، لذلك يجب أن يعرفوا الإسلام ليدركوا أنه ليس خطرا عليهم ، ويجب أن يقتربوا ويتعايشوا مع المسلمين ليتأكدوا أنهم بشر مثلهم ، ومؤمنون بالله ، وأن هذا الإيمان يمنعهم من إيذاء الغير ، أو الاعتداء على أرواح أو ممتلكات من يخالفهم فى الرأى أو العقيدة .. ولقد كان شيخ الأزهر رائعا فى توضيح هذه الحقائق .. ونحتاج إلى نشرها على أوسع نطاق ، لتصل إلى كل إنسان ، وبذلك لن يكون هناك تخوف ، وبالتالى لن يكون هناك صراع .

واستمر الحوار .. من جانبى وجانبه .. وقال مساعد كبير الأساقفة : لابد أن نعرف أنه من الطبيعى أن يشعر الإنسان بالتخوف من كل من يختلف عنه فى اللغة ، أو لون البشرة ، أو الأصل العرقى ، أو العقيدة .. وهناك من يتخوفون من كل ما هو أجنبى عموما .. ولكن بعد المعرفة .. وبعد التجربة .. وبعد التعايش .. تزول هذه المخاوف ، ويتعود الناس على الحياة المشتركة مع من يختلفون معهم دون توجس ..

وامتد الحوار مع حرارة المشاعر والقهوة الساخنة فى يوم أمطرت فيه السماء فى الصيف ، وتلبدت السماء بالغيوم ، ثم سطعت الشمس وكأن شيئا لم يكن ، وقال لى مساعد كبير الأساقفة الذى كان يستقبلنى تحت المظلة وثيابه وثيابى مبللة بالمطر ويودعنى مع الجو البديع .. هكذا لندن .. لعلك تحبها هكذا ..

وقد أحببت لندن هكذا .. !

* * *

وفي وزارة التعليم كان حوارى مع توم جينكين المسئول عن تعليم الديانات غير المسيحية فى مدارس بريطانيا ، وكنت أبحث .. هل يسمحون بتدريس الدين الإسلامى للتلاميذ المسلمين وهم أقلية ؟ .. وكيف ؟ .. ومن الذى يضع المنهج .. ومن الذى يقوم بالتدريس ؟ ..

وقال لى توم جينكين : إن الحقيقة التى نسلم بها هى أن بريطانيا متعددة الثقافات ، متعددة الأديان ، متعددة الأصول العرقية .. ونحن نتعامل مع هذه الحقيقة .. عندنا ثلاثة ملايين ونصف مليون بريطانى من أصول عرقية غير أوربية ، وكل الأطفال عندنا يجب أن يحصلوا على فرص متساوية فى التعليم . وسياسة المساواة فى التعليم بدأ تنفيذها منذ عام ١٩٨٨ ، وهى تراعى المتطلبات الخاصة لأبناء الأقليات .. مثل تعليمهم اللغة الإنجليزية لأن بعض الأطفال تعلموا لغة آبائهم غير الإنجليزية ، وتخصص الوزارة خمسة آلاف معلم لهؤلاء الأطفال لتحسين اللغة الإنجليزية ليتمكنوا من مواصلة الدراسة مع زملائهم ، ونراعى اختيار بعض هؤلاء المعلمين من أصول عرقية مختلفة ليكونوا نماذج لهؤلاء الأطفال ، ونراعى أيضا أن يعكس منهج الدراسة الثقافات المختلفة لكيلا يشعر التلاميذ أن المناهج وضعت للبيض فقط . والمدارس تشجع الآباء من أصول عرقية مختلفة للاشتراك فى مجالس الأمناء التى تتولى إدارتها وعدد التلاميذ المسلمين فى بريطانيا يمثلون ٣,٥٪ من جملة التلاميذ ، والوزارة تعقد اجتماعات من خلال لجان مشتركة مع الهيئات الإسلامية المختصة ، ووزير التعليم فى الحكومة الجديدة دعا إلى اجتماع مع المسلمين المسئولين عن تعليم الدين الإسلامى سيعقد فى الخريف القادم .

أما تعليم الدين الإسلامى فى المدارس فهذا موضوع حساس ، لذلك هناك لجان محلية تجتمع يشترك فيها المختصون فى كل دين لوضع مناهج تعليم الديانة مثل الإسلام ، والبوذية ، والهندوسية ، بحيث لا يعكس تعليم الدين ديانة واحدة ، ولكن يعكس مختلف الديانات .. يهمنا أن يعرف التلميذ شيئا عن الديانات الأخرى ليدرك أن هناك ديانات أخرى ..بالإضافة إلى التوسع فى تدريس الدين الخاص لكل مجموعة من التلاميذ ، وبعض المدارس التى تجد فيها مجموعة من التلاميذ المسلمين تخصص لهم مكانا للصلاة ، وتقدم وجبات خاصة للمسلمين ليس فيها لحم أو دهن الخنزير .. وفى أعياد المسلمين يمنحون التلاميذ المسلمين إجازة .. والوزارة تشجع المدارس على إعطاء حرية للتلاميذ بالنسبة للزى المدرسى .. بعض الفتيات لا يردن لبس الجونلات .. أو يفضلن وضع الحجاب .. والمدارس لا تمانع .. المشكلة أن بعض المدارس تأسست على أنها مدارس دينية مسيحية أو يهودية ، وهذه المدارس تستطيع أن تحصل من الدولة على معونة تصل إلى ٨٥٪ من مصروفاتها ، بينما تقدمت مدرستان إسلاميتان ولم توافق الوزارة على منحهما هذه المعونة ، وهذا أدى إلى شعور المجتمع الإسلامى فى بريطانيا بعدم الرضا ، واعتبروا قرار الوزارة بالرفض جاء بدون مبرر معقول ..ولكن هذا لا يمنع من أن تحصل مدارس إسلامية على معونة من الوزارة .. والآن هناك مدرسة أخرى تقدمت بطلب ..

* * *

كيف يُدرسّ الإسلام للتلاميذ ؟ ..

قال لى المسئول عن تعليم الأديان بوزارة التعليم البريطانية : إن هذا يتقرر إذا وجدت جالية إسلامية كافية فيكون لها الحق فى أن تمثل فى لجنة المناهج

وتقرر تعليم الدين الإسلامى ، ولا يتوافر معلمون مسلمون لذلك يمكن أن يقوم معلمون غير مسلمين بتعليم الإسلام للتلاميذ المسلمين .. وهذا طبعا موضوع حساس بالنسبة للمسلمين ، لأنهم يرون أن الإسلام يجب أن يعلمه مسلمون .. ولكن نحن نقول : إن التلميذ ليس مجبرا على حضور حصة الدين ، ويمكنه عدم حضور حصة الدين إذا شعر التلميذ أو ولى أمره بعدم الرضا عن أسلوب تعليم الدين .. فليس هناك امتحان فى مادة الدين .. وتعليم الدين مرن ، والمنهج يختلف من مكان لآخر لأنه يوضع محليا ولا تضعه الوزارة ، ونحن نلمس أن الآباء غير راضين عن المناهج ؛ لذلك نبحث كيفية تحسين منهج تدريس الأديان .. وليس فى بريطانيا كتاب لتدريس الدين .. وكل مدرسة حرة فى تحديد المواد التى تستعين بها فى التدريس ..

وهكذا فهمت أن هناك مشاكل فى تدريس الإسلام .. ولكنها ليست متفجرة .. والوزارة متفهمة ومستعدة للتفاهم .. وهذا شىء نادر فى أوربا .

هل معنى ذلك أن الإسلام بخير فى بريطانيا .. ؟

* * *

الإجابة نعم ولا ..

نعم الإسلام بخير نسبيا فى بريطانيا ؛ لأنها أفضل بكثير من غيرها .. والإسلام ليس بخير نسبيا ؛ لأن تيار العداء للإسلام موجود أيضا فى بريطانيا كما هو موجود فى كل دول الغرب وإن كان أقل حدة واتساعا .. والحكومة تتعامل مع الإسلام بمرونة وذكاء ..

وهناك دور كبير يقوم به الأمير تشارلز ولى العهد لوقف تيار العداء للإسلام ، وإيجاد تيار للتعاون والتفاهم ، وهو يتولى بنفسه إقامة جسور الفهم والتفاهم ..

في **جامعة أكسفورد** وقف ولى العهد البريطانى فى عام ١٩٩٣ ليدافع عن أهمية العلاقات بين الإسلام والغرب .. وبعد أن قام بزيارة إلى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية القى محاضرة ركز فيها على نقاط تستطيع من خلالها أن تفهم طبيعة « الرسالة » التى أراد أن يوجهها .. وتدرك أن هذه المحاضرة لم تكن مجرد محاضرة فى جامعة ، ولا هى تحية لأصحاب دين ترى بريطانيا أهمية الحرص على العلاقات الطيبة معهم .. ولكن هناك ما هو أهم .. مثل قوله :

- أحدثكم عن موضوع الإسلام والغرب لأننى مؤمن بأن العلاقات بين هذين العالمين تتسم الآن بالأهمية أكثر من أى وقت مضى ..
- إن درجة سوء الفهم بين العالمين الإسلامى والغربى ماتزال عالية على نحو خطير .
- إن الحاجة إلى تعايش الجانبين أكبر من أى وقت مضى .
- أنا أدرك طبيعة حقول الألغام على الطريق بين الإسلام والغرب .
- سوء الفهم للإسلام بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل ، فهناك الف مليون مسلم فى شتى أرجاء العالم ، ويعيش الملايين منهم فى دول الكومنولث ، وهناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر فى الغرب ، ومنهم مليون فى بريطانيا ، والجالية الإسلامية تنمو .. والاهتمام الشعبى بالثقافة الإسلامية يتنامى . إن الإسلام يحيط بنا من كل جانب ، ومع ذلك يستمر الشك والخوف .
- من الغريب أن يستمر سوء الفهم بين الإسلام والغرب ، فالذى يربط بين العالمين أقوى مما يقسمهما ، فالمسلمون والمسيحيون واليهود جميعهم : « أهل الكتاب » والإسلام والمسيحية يشتركان فى النظرة الوحدانية : الإيمان بإله واحد ، وبأن الحياة الدنيا فانية ، وبالمسئولية عن أعمالنا ، والإيمان

بالآخرة .. إننا نشترك فى كثير من القيم : احترام المعرفة ، والعدل ، والرأفة بالفقراء ، وأهمية الأسرة ، واحترام الوالدين .

● معظم التاريخ تميز بالصراع بين العالمين المسيحى والإسلامى ، وكثيرا ما اتسمت فترة ١٤ قرنا بالعداء المتبادل ، وأدى ذلك إلى نشأة الخوف والشك .

● العالم الإسلامى والعالم الغربى ينظران إلى الماضى بمنظورين مختلفين : بالنسبة لتلاميذ المدارس الغربية تعتبر الحروب الصليبية التى استمرت ٢٠٠ عام سلسلة من الأعمال البطولية والمجيدة حاول خلالها الملوك والفرسان والأمراء الأوربيون تخليص القدس من أيدى « الكفار » المسلمين الأشرار .

● أما المسلمون فيعتبرون الحروب الصليبية حقبة من الوحشية وأعمال السلب والنهب قام بها المرتزقة الغربيون « الكفار » .. وكذلك الفضائح المرعبة من المذابح التى ارتكبها الصليبيون عندما استردوا القدس عام ١٠٩٩ ميلادية .. والقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين .

● وعام ١٤٩٢ م فى الغرب عام الآفاق الجديدة باكتشاف كولمبوس الأمريكتين ، وبالنسبة للمسلمين هو عام مأساة سقوط قرطبة فى أيدى فرديناند وازابيلا ، وانتهت بذلك ٨ قرون من الحضارة الإسلامية فى أوربا .

● المسألة ليست فى تحديد أى الصورتين أكثر صحة وأيهما تنكر الحقيقة .. المسألة هى سوء التفاهم والفشل فى معرفة رؤية الآخرين .

● نتيجة لنظرتنا إلى تاريخنا فى الغرب فإن الإسلام يعتبر تهديدا ، بالفتح العسكرى فى العصور الوسطى ، وبالتطرف والإرهاب وعدم التسامح فى العصر الحديث .

● كثيرون فى الغرب ينظرون إلى الإسلام بمنظار الحرب الأهلية المأساوية

فى لبنان ، والقتل والتفجير الذى تقوم به جماعات متطرفة فى الشرق الأوسط ، وبما يشار إليه عموما بعبارة « الأصولية الإسلامية » .

● لقد عانى حكمنا على الإسلام من التحريف الجسيم باعتبار التطرف هو القاعدة ، وهذا خطأ جسيم . مثل الحكم على نوعية الحياة فى بريطانيا من خلال جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء على الأطفال وإدمان المخدرات .

● كثيرا ما يجادل الناس فى الغرب بأن قوانين الشريعة فى العالم الإسلامى قاسية ووحشية ومجحفة ، وتروّج صحفنا هذه الأفكار الظالمة .. واعتقادى أن روح الشريعة الإسلامية هى الإنصاف والرحمة . علينا أن ندرس التطبيق الفعلى للشريعة قبل أن نصدر أحكامنا .

علينا أن نميز بين أنظمة العدالة الحقة وأنظمة العـــدالة التى نراها فى التطبيق تُحَرِّفُ الشريعة لأغراض سياسية وتحولهـــا إلى شىء ليس إسلاميا .

● وعلينا أن نتذكر النقاش فى العالم الإسلامى حول تطور فهم وتطبيق القانون الإسلامى باستمرار .

● وعلينا أن نفرق بين ما هو « إسلام »وما هو « عادات » فى بعض البلاد الإسلامية .

● وتذكروا أن دولا إسلامية مثل مصر وسوريا منحت المرأة حق التصويت فى نفس الفترة التى منحت فيها أوربا المرأة هذا الحق ، وقبل سويسرا بفترة طويلة ، وفيها تتمتع المرأة بالمساواة فى الأجور والعمل . والقرآن نص منذ ١٤ قرنا على حق المرأة المسلمة فى التملك والإرث وبعض الحماية فى حالة الطلاق ، هذا يعنى أن الإسلام لا يظلم المرأة .. وبعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتى فى بريطانيا .. بينظير بوتو والبيجوم خالدة ضياء أصبحتا رئيستين للوزراء عندما شهدت بريطانيا أول رئيسة وزراء فى

تاريخها .. ! فالنساء لسن من الدرجة الثانية فى المجتمعات الإسلامية .. ولا نأخذ أشد الدول الإسلامية تحفظا كمثال لتطبيق الإسلام .

● علينا أن نفهم نظرة العالم الإسلامى الينا والتخوف من المادية الغربية .

● علينا أن نحذر كلمة « الأصولية » تلك التسمية المثيرة للعواطف .

● وعلينا أن نفرق بين دعاة الصحوة الإسلامية الذين يدعون إلى التقوى ، وبين المتعصبين والمتطرفين الذين يستخدمون الدين لتحقيق أهداف سياسية .

● علينا ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن التطرف هو سمة المسلم وجوهره ، فالتطرف ليس حكرا على الإسلام بل فى ديانات أخرى بما فيها المسيحية .

● الغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال السياسى ودينهم هو « دين الاعتدال » والنبى محمد نفسه كان يمقت التطرف .

● علينا أن نتعلم التميز بوضوح بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين ، وبين أعمال العنف التى تقوم بها أقلية صغيرة .

● إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم فى الغرب لطبيعة الإسلام ، فإن هناك قدرا مساويا من الجهل بالفضل الذى تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى ، فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسى ، ازدهر فيه الباحثون المتخصصون ورجال العلم ، ولكن لأننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدوا للغرب وغريبا عنا فى العقيدة والثقافة والنظام ، لذلك لجأنا إلى تجاهل أو محو أهميته فى تاريخنا . وعلى سبيل المثال قللنا من أهمية ٨٠٠ سنة من الثقافة الإسلامية فى أسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر ، وكانت أسبانيا فى ذلك العصر وهى فى ظل الحكم الإسلامى هى التى حافظت على العلوم الكلاسيكية خلال عصور الظلام وهى التى وضعت اللبنات الأولى للنهضة الأوربية ، وقد ساهم ابن رشد ، وابن

زهر فى الأندلس كما ساهم ابن سينا والرازى فى الشرق فى دراسة الطب وممارسته واستفادت منهما أوربا لقرون عديدة .

● نحن نعرف عن وجود مكتبات عامة فى أسبانيا الإسلامية فى الوقت الذى كان فيه الملك الفريد يرتكب أخطاء جسيمة فى فنون الطبخ فى بريطانيا . وأساليب البحث العلمي وعلم الإنسان وآداب السلوك والطب البديل والمستشفيات جاء إلينا من أسبانيا الإسلامية .

● أن الإسلام فى العصور الوسطى اتسم بقدر كبير من التسامح ، فقد منح اليهود والمسيحيين حق ممارسة معتقداتهم ، وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها دول كثيرة فى الغرب .

● إن الإسلام جزء من ماضى الغرب وحاضره فى جميع مجالات البحث الإنسانى ، وساهم فى إنشاء أوربا المعاصرة ، فالإسلام جزء من تراث الغرب وليس شيئا منفصلا عنه .

● والإسلام يمكن أن يعلم الغرب طريقة للتفاهم والتعايش مع العالم ، وهذا أمر فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى ضعفها .

● يشترك العالم الإسلامى والعالم الغربى فى مشكلات تمسنا جميعا .. التغير الاجتماعى .. اغتراب الشباب .. الإيدز .. المخدرات .. تفكك العائلة .. مشاكل البيئة .. وعلينا أن نعمل معا لحل هذه المشكلات التى تهدد مجتمعاتنا وحياتنا ، وأن مجرد تعرفنا على بعضنا البعض يمكن أن يحقق معجزات .

● علينا أن نتعلم أن نفهم بعضنا البعض . علينا أن نظهر الثقة والاحترام المتبادل بيننا .

● وعلينا أن نتفاهم .. ونتسامح .. ونبنى على أساس المبادئ الإيجابية التى تشترك فيها ثقافاتنا .

● إننى على قناعة تامة بأن العالمين : الإسلامى والغربى يمكن أن يتعلما من بعضهما البعض ، فكما أن مهندس البترول فى الخليج يمكن أن يكون أوربيا ، فإن جراح زراعة القلب فى بريطانيا يمكن أن يكون مصريا ..

● إن العالم الإسلامى والعالم الغربى وصلا الآن إلى مفترق طرق فى علاقاتهما ، ولا يجوز أن نجعلهما يفترقان .. !

● وأنا لا أوافق على أن العالم الإسلامى والعالم الغربى يتجهان نحو صدام ، وعهد جديد من الخصومة والعداء .. وهناك الكثير مما يجب أن نقوم به معا . وعلينا أن نقضى على شبح الشك والخوف .

* * *

هذا التحليل الذى قدمه الأمير تشارلز شاركت فى حوار طويل عنه وعما فيه من نضج يجعله بداية طيبة يجب أن يشارك المثقفون فى الغرب والمثقفون فى العالم الإسلامى فى البناء عليه . خاصة إذا أضيف إليه الجهد الذى يبذله الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى جولاته الأوربية وحرصه على إعادة الثقة بين الجانبين ، وتوضيح حقيقة الإسلام فى الغرب .. وكان الحوار فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية .

فى هذا المركز التقيت بالدكتور باسل مصطفى والدكتور عاصم زوبسفيك ، وبعد جولة فى بعض كليات جامعة أكسفورد ، وفى المركز جلست أسأل وأناقش ..

أول كرسى جامعى كان فى جامعة كمبريدج كان فى القرن ١٧ عام ١٦٣٢ وفى جامعة أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات . وأول نسخة من القرآن مترجمة إلى الإنجليزية نشرها المحامى جورج سايل عام ١٧٣٤ ، والآن هناك ترجمات كثيرة للقرآن .

أما مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية فقد تأسس عام ١٩٨٥ مرتبطا بجامعة أكسفورد ، والهدف من إنشائه هو تعزيز فهم الإسلام ، والعالم الإسلامى ، والتراث الإسلامى .. وهو ينظم برامج للتدريس وندوات ثقافية ومؤتمرات ، ويشارك فى الأبحاث ، ويجد رعاية من الأمير تشارلز ، ومن خادم الحرمين ، ومن سلطان بروناى ، ويديره مجلس أمناء يضم نخبة من الشخصيات الإسلامية البارزة ، مع ممثلين عن جامعة أكسفورد ، ويتولى المركز تنفيذ مشروعين كبيرين : الأول هو مشروع الأطلس الإسلامى يسجل كل المعلومات عن المناطق الحضارية فى العالم الإسلامى ، والمجلد الأول على وشك الصدور وهو عن جنوب آسيا وشاركت فى تمويله بعض المؤسسات الأمريكية ، والثانى إعداد موسوعة عن تاريخ العالم الإسلامى من ١٢ مجلدا . فى نهاية عام ١٩٩١ زار المركز الأمير السعودى بندر بن سلطان وأعلن عن مساهمة خادم الحرمين فى بناء مقر خاص للمركز خصص له ٢٠ مليون جنيه استرلينى . ويصدر المركز مجلة دورية متخصصة ذات مستوى علمى رفيع عن كل قضايا وشئون العالم الإسلامى .

وبين المركز وجامعات الأزهر والقاهرة وعين شمس اتفاقات للتعاون وتبادل الأساتذة والمراجع ولم تنفذ هذه الاتفاقات .. !

وليس المركز الإسلامى فى جامعة أكسفورد هو الوحيد فى بريطانيا ..

وفى بريطانيا منظمات تشجع التربية الإسلامية مثل : المجلس الوطنى للتربية الإسلامية ، وأمانة التربية الإسلامية ، والاتحاد الفيدرالى لجمعيات الطلبة المسلمين فى الجامعات البريطانية ، وهناك فصول مسائية لتدريس الدين الإسلامى ، كما أن هناك ٢٢ مدرسة إسلامية مستقلة يدخلها التلاميذ الذين يريدون تعليما إسلاميا خالصا ، ولا يمنع القانون البريطانى تأسيس مدارس مستقلة ..

هكذا يفاخرون فى بريطانيا وهم يتحدثون عن الحريات الدينية وعدم وجود اضطهاد دينى أو حساسية دينية كما يحدث فى بعض بلاد الغرب الأخرى .

ويفاخرون أيضا بمحاضرة ثانية القاها الأمير تشارلز فى العام الماضى فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية باعتباره الراعى الفخرى لهذا المركز وقال فيها : إن النزعة المادية الحديثة غير متوازنة وضارة ، وقد أصبح الدين والعلم منفصلين ، والآن فقط بدأنا فى إدراك النتائج المدمرة لهذه النظرة .. ويستشهد الأمير تشارلز بالآية الكريمة :﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ليدلل على الربط بين ما هو مادى وما هو إلهى ، وقال الأمير تشارلز فى محاضرته تلك بأن هناك كلية الدراسات الشرقية أسستها جامعة لندن عام ١٩١٦ وهى أكبر مركز بريطانى للدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامى .

وفى جامعة كمبريدج قسم خاص للدراسات الإسلامية والشرق أوسطية وكذلك فى جامعة درم . وفى جامعة ادنبره كرسى للدراسات العربية والإسلامية بمنحة من جامعة بغداد . وهناك جامعات كثيرة جدا فى بريطانيا فيها دراسات إسلامية وعربية ، وآخرها معهد الدراسات الإسماعيلية فى لندن الذى أسسه عام ١٩٧٧ الأغاخان .

فى لندن مكتب لرابطة العالم الإسلامى منذ عام ١٩٨٤ .

واتحاد المنظمات الإسلامية فى بريطانيا تأسس عام ١٩٧٠ يضم منظمات إسلامية متعددة وينظم نشاطها .

وهناك « لجنة عمل الشئون الإسلامية » تأسست بعد صدور كتاب سلمان رشدى « آيات شيطانية » وما أثاره هذا الكتاب من ضجة عظمى .. وتطالب هذه اللجنة بإصدار تشريع يحظر التمييز الدينى والتحريض على الكراهية الدينية .

والمؤسسات التربوية فى بريطانيا أصبحت ملزمة منذ عام ١٩٨٩ بقانون « العلاقات بين الأعراق » يمنع التمييز العرقى فى التعليم ، بإقامة صلات جديدة بين الحضارة الإسلامية والغرب ، وبأن يكون فى المدارس البريطانية أساتذة أكثر من المسلمين ، وتشجيع تبادل الأساتذة بين الجامعات البريطانية والجامعات الإسلامية وختم محاضرته بقوله : « إننا فى الغرب نحتاج إلى أن نتعلم على أيدى أساتذة مسلمين كيف نتعلم بقلوبنا وعقولنا معا » .

* * *

هذه بعض ملامح صورة من صورتين للإسلام فى بريطانيا .. صورة فيها احترام بدرجة معقولة ، ورغبة فى التفاهم ، واعتراف ببعض حقائق الإسلام ، ودفاع لا بأس به عن هذا الدين على أنه ليس دين الجهل ، والكراهية ، والتطرف ، وليس دين العداء للآخر ، ولكنه دين التسامح والتعاون ..

لكن ذلك كله ليس إلا جانبا من وجهى العملة فى بريطانيا ..

الوجه الآخر هو تكرار لما نراه فى الغرب عموما ..

وهناك من ينفخ فى النار ، ويثير مخاوف البريطانيين من الإسلام والمسلمين ،ويستغل جهل الناس العاديين فيقدم لهم مبادئ الإسلام مشوهة ، ويسئ إلى نبى الإسلام حتى يظهره فى أبشع صوره ، ويتعمد الخلط فى وقائع التاريخ الإسلامى ليحقق أهدافا خبيثة ، ويشوه نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ .

باختصار .. إن فى بريطانيا صورة أخرى تستحق أن نعرفها ..

٢ سلمان رشدى
نموذج لحملات التشويه

ساد التوتر فى كل أنحاء العالم الإسلامى بعد أن شاهد المسلمون على شاشات التليفزيون فى آخر أيام يونيو ٩٧ ملصقات بذيئة على جدران البيوت فى القدس تصور الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم فى صورة خنزير والقرآن ملقى تحت أقدامه . وقيل أن هذه المنشورات رسمتها امرأة اسرائيلية اسمها « تاتيانا » وإن المنظمات الصهيونية المتطرفة قامت بتوزيعها تحديا لمشاعر الفلسطينيين .

وبعد ساعات من ظهور هذه المنشورات فى محطات التليفزيون الأمريكية والأوربية أصبحت هذه المنشورات القصة الرئيسية فى كل صحف العالم ، وانتشر الغليان والتوتر فى أنحاء العالم الإسلامى .. فى القاهرة ، والسعودية ، والرباط ، وباكستان ، وإيران ، ثم فى كل الدول والمدن الإسلامية دون استثناء ..

وظهرت خطورة اللعبة .

إن الصراع العربى الإسرائيلى فى حقيقته صراع سياسى .. صراع على الأرض والحقوق والسيادة .. ولكن تبين أن هناك منظمات صهيونية تريد نقل الصراع من صراع سياسى إلى صراع دينى لكى يتحول من صراع يمكن حله إلى صدام أبدى لا يمكن حله .

وكشفت القصة فى نفس الوقت أن هناك من يحمل الكراهية والعداء للإسلام .. وليس ذلك جديدا ..

وسيظل العداء للإسلام قائما فى قلوب سوداء ، وسوف يموت هؤلاء بغيظهم كمدا ، ويبقى الإسلام حيا ، ليس لأن المسلمين مستعدون للاستشهاد دفاعا عنه ، ولكن لأن الله هو الذى يحمى دينه الحق ، وكتابه الكريم .. ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ..

ولن تكون « تاتيانا » إلا فقاعة تافهة .. صناعة إسرائيلية ، مثل فقاعات كثيرة جدًا .. آلاف الفقاعات كانت أكبر وأضخم .. ظهرت فى الغرب .. لم يكن أولهم سلمان رشدى .. ولكن سبقه مئات ذهبوا جميعا إلى النسيان .. وأهملهم التاريخ .

وهذا يعيدنا إلى استكمال الحديث عن الصورتين اللتين رأيت عليهما الإسلام فى بريطانيا .

الصورة الثانية للإسلام فى بريطانيا ليست إلا تجسيدًا وتكرارًا لموقف الغرب من الإسلام عموما ..

وفى هذه الصورة تفاصيل كثيرة ..ولعل قصة سلمان رشدى « آيات شيطانية » وما أحاط بها تكفى لنعرف منها الكثير .. فقد تركزت عليها أضواء الإعلام بشكل مبالغ فيه جعلها تبدو كأنها أهم أحداث القرن العشرين .. وظلت الصحافة البريطانية تكتب عنها صفحات وصفحات .. ومحطات التليفزيون تقدم سلمان رشدى على أنه عبقرى هذا العصر وتنقل ندوات وأحاديث ولقاءات مع شخصيات مشهورة لتتحدث عن الرواية ومؤلفها .. وفى يوم وليلة حقق سلمان رشدى ثروة تقدر بملايين الجنيهات الاسترلينية .. وبعدها جاءت فتوى الخمينى فى إيران بإباحة قتله .. فكان هذا هو المطلوب للإساءة إلى الإسلام مرتين : مرة بإعادة عرض الرواية وما فيها من انحطاط فكرى وأخلاقى .. ومرة أخرى بتصوير أن الإسلام هو دين القتل وأن المسلمين لا يعرفون إلا الإرهاب وسيلة للتفاهم مع من يختلف معهم .

ودخل سلمان رشدى التاريخ دون مبرر هو وروايته « آيات شيطانية » .

والأمر الغريب أن سلمان رشدى ليس شكسبير ولا هيمنجواى ولا أندريه جيد .. بمعنى أنه ليس من عباقرة الكتاب والأدباء العالميين . ولكنه – باعتراف النقاد فى الغرب – كاتب من الدرجة الثانية .

والأغرب من ذلك أن الرواية – باعتراف النقاد الغربيين أيضًا – ليست إلا عملا من الدرجة الثالثة ، فالأسلوب ليس بليغا ولكنه معقد وسخيف .. !

والبناء الروائى ليس محكما .. ولا يمكن أن تكون هذه الرواية الركيكة من الأعمال الفنية التى تستحق كل هذا الصخب العالمى الذى حظيت به .

كل ما فى الأمر أن كاتب الرواية مسلم أعلن الردة ، وأطلق لقلمه ولسانه العنان فى سب الإسلام وشريعته وكتابه ورسوله وصحابته ، وأعلن أنه فخور لأنه تخلص من هذا الدين ومعتقداته ومن تخلف شعوب الشرق الإسلامى ، وجاءت روايته مليئة بالسب فى الإسلام وبيت النبوة بألفاظ بذيئة ، ومع أن الرواية ليست إلا هلوسة فنية وعقلية كما قال عنها النقاد إلا أن الصحافة ووسائل الإعلام الغربى تلقفت الرواية باهتمام غير عادى ، ودارت عجلة الدعاية تقدمها كأنها وثيقة عالمية لإدانة الإسلام وأهله .

وكما هى العادة جاءت الانفعالات المتوقعة من الجانب الإسلامى الذى كان فى انتظارها .. وصدرت فتوى الخمينى فى إيران بإهدار دم سلمان رشدى وإباحة قتله ، وعلى جميع المسلمين تنفيذ ذلك أينما وجدوا .. وكانت هذه هى الجائزة الكبرى التى حصل عليها الغرب من حملتهم لإثارة مشاعر المسلمين .. فامتلأت الصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون بأحاديث عن الإسلام الذى لا يتعامل مع المختلفين معه فى الرأى إلا بالقتل ، وجاءت التحليلات الجاهزة بأن الإسلام دين عنف ، وقتل ، وسفك دماء ، وبأن

المسلمين لا يسمحون باختلاف الرأى ، وهدفهم دائما قتل كل من يخالفهم فى الرأى والعقيدة .

وكلما انطفأت جذوة الموضوع وجدت من ينفخ فيها لتشتعل من جديد ، حتى أن الرواية – وفتوى الخمينى – صدرتا عام ١٩٨٨ ولكن الحديث عنهما مازال مشتعلا حتى الآن ..

أذهب إلى الولايات المتحدة ، ثم إلى ألمانيا ، ثم إلى بريطانيا ، وأشارك فى حوارات وأحاديث مع جماعات مختلفة من أساتذة الجامعات ، ورجال الدين المسيحى واليهودى ، ورجال السياسة ، والصحفيين ، والمسئولين فى الحكومات ، فأجد أن قضية سلمان رشدى لابد أن تثار .. ولم يخلُ لقاء مع أى شخص غربى صاحب فكر أو حتى شخص عادى .. موظفا كان فى محل تجارى أو عاملا فى مطعم إلا ويسألنى : لماذا لا يحتمل المسلمون النقد .. ؟ لماذا يحرم الإسلام حرية التفكير .. ؟ لماذا تقتلون المختلفين معكم .. ؟

إما أن يرددوا ما تقولون وإما أن يفقدوا حياتهم .. ؟

سمعت هذه الأسئلة وأمثالها كثيرا بشكل جعلنى أرى أن هناك من يجعل من « الحبة قبة » كما يقول المثل الشعبى .

* * *

سلمان رشدى فى روايته لم يترك شخصية فى الإسلام إلا ووجه إليها السباب بألفاظ بذيئة ، ليست نقدا ، ولا تحليلا ، ولا تصويرا ، ولكنها شتائم وإهانات ..

ووجه هذه الشتائم إلى الصحابة بأسمائهم ، وأشار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باسم « ماهاوند » ليشير إلى أنه شرير ونبى مزيف مصاب بالصرع والهلوسة ولا يتورع عن أى عمل مهما يكن متعارضا مع المبادئ الأخلاقية

مادام يحقق له غرضه ، ويصور زوجات الرسول – أمهات المؤمنين – على أنهن مجموعة غانيات يعملن فى بيت للدعارة يحمل اسم « الحجاب » وكبيرتهن تروى كيف تزوجها النبى هى والسيدة عائشة فى يوم واحد ، ومكة المكرمة مدينة الجاهلية ، والرسول صلى الله عليه وسلم نبى الجاهلية ، ورئيس الملائكة من مؤيدى اللواط ، وجبريل مخلوق بذىء اللسان ، وأن الشيطان خدع الرسول صلى الله عليه وسلم وأجرى على لسانه آيات تجعل لأوثان الجاهلية : اللات والعزى ومناة شفاعة ترتجى (!) وأن الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه قام بتزوير الوحى وخداع الرسول .

والمثير فى الموضوع أن مؤلفا هزيلا كهذا ، ورواية هزيلة كهذه ، سخيفة ، مليئة بالأكاذيب ، والعداء الصريح ، والاتهامات البذيئة ، ولا تستند إلى أى مصدر تاريخى ، كيف يمكن أن تنال كل هذا الاهتمام فى دول الغرب دون استثناء ، وهل كل هذه الضجة التى أثيرت حول فتوى الخمينى كان مقصودا بها تكريس حملة العداء للخمينى وإيران وتأكيد اتهام إيران بالإرهاب ، أو كان الهدف هو دفع كل غربى إلى قراءة هذه الأكاذيب والنظر إليها على أنها حقائق ، وبذلك تكون هذه الرواية ، والحملة على الإسلام على أنه دين العنف والإرهاب ، قد حققت هدفا كبيرا هو زيادة تشويه صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب ؟

ولكى ندرك البعد الحقيقى لهذه المعركة المفتعلة علينا أن نتذرع بالصبر ، ونحتمل البذاءة ، لكى نعرف بالضبط من هو سلمان رشدى وما هى قضيته ، وهل هى قضية حرية رأى وحق فى الاختلاف كما يقال فى الغرب ؟ .

وسجل حياة سلمان رشدى يشير إلى كاتب عادى جدًا ليست لديه مواهب خارقة ، فهو أولا مولود فى بومباى بالهند فى عام ١٩٤٨ الذى تمت فيه عملية تقسيم الهند وإعلان قيام دولة باكستان ، وانتقلت أسرته إلى باكستان

باعتبارها أسرة مسلمة ، وأرسله أبوه للدراسة فى إنجلترا وهو مازال حدثا فى الثالثة عشرة من عمره ، فانبهر بالحضارة الغربية ،ودخل تجربة انسحاق الشخصية أمام ما رآه فى جامعة اكسفورد حيث تعلم ، وارتضى أن يتخلى عن شخصيته وعقله وجنسيته ، ولا أحد يعرف كيف حصل على الجنسية البريطانية ، ثم عاد إلى باكستان ليعمل فى التليفزيون ولكنه فشل وفصل من عمله فعاد إلى إنجلترا وتزوج فتاة بريطانية قدمته إلى أصحاب دور النشر ، وكانت السلعة التى يعرضها هى كتاب لتشريح مجتمع بومباى وإظهار مفاسده وتناقضاته وتخلف المجتمع الهندى فى روايته « أطفال منتصف الليل » ، وحصل عنها على جائزة « بوكر » الأدبية عام ١٩٨١ ، وبعد عشر سنوات طلق زوجته البريطانية وتزوج أخرى أمريكية ، ونشر رواية بعنوان « العار » لم تلق اهتماما ، وأخيرا أصدر روايته « آيات شيطانية » التى جعلته أشهر كاتب فى بريطانيا وأوربا كلها وأمريكا ، وحققت له أرباحا بلغت ملايين الجنيهات الاسترلينية ، وانتقل إلى فيلا اشتراها فى أرقى حى فى لندن ، وجند لحراسته شركات وأفرادا مسلحين .. وأصبحت السلعة الرائجة التى تدر عليه الملايين هى فتوى الخمينى بإهدار دمه ..

* * *

ولو كان سلمان رشدى قد ترك للإهمال والنسيان من جانب العالم الإسلامى لكانت الضجة قد انتهت بعد فترة حين يصل المحرضون والمحركون الحقيقيون إلى اليأس من تحقيق أهدافهم .. ولكن الخمينى تعجل واندفع وقدم للغرب ما كان يريده .. لكى يستخدمه كدليل على أن الإسلام دين قتل وإرهاب .

* * *

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن دار النشر التى نشرت الرواية هى دار النشر البريطانية اليهودية « بنجوين » .

والرواية من ٩ فصول تحمل العناوين الآتية : الملاك جبريل – ماهاوند – اللوين ديونى – عائشة – مدينة مرئية لا يمكن مشاهدتها – العودة إلى الجاهلية – الملاك عزرائيل – مفارقة البحر العربى – المصباح المدهش .

يبدأ الفصل الأول بوصف حادث انفجار إحدى طائرات البوينج ٧٤٧ التى تحمل اسم « البستان » – وهو أحد أسماء الجنة الذى يرمز إلى البعث من جديد – أثناء عبورها فوق القنال الإنجليزى على أثر وقوعها فى أيدى المختطفين وسقوط اثنين من ركاب الطائرة – يرمز لهما المؤلف باسم جبريل فاريشتا النجم السينمائى الهندى الشهير وصلاح الدين تشامشا .. ويحتوى هذا الفصل على خواطر وهذيان الناجيين الوحيدين من الحادث أثناء هبوطهما وسط بقايا الطائرة المنكوبة وأشلاء الضحايا المتناثرة . ثم يصف المؤلف شغف جبريل بالتناسخ وولعه بالقصص التى رددتها له أمه عن النبى محمد ، ثم يعترف ببعض الخواطر التجديفية التى واتت جبريل حول النبى وكيف كان يقارن نفسه بالنبى فى تجربة يتمه المبكر ، وكيف نجح فى سنوات حياته الأولى مثلما نجح الرسول فى تجارته وفى الزواج من السيدة خديجة ذات الثراء العريض .

ثم يعود المؤلف إلى وصف حادث اختطاف الطائرة بواسطة ثلاثة رجال وامرأة وإجبارها على الهبوط فى مطار إحدى الواحات التى أطلق عليها المؤلف اسم « الزمزم » واحتجاز الرهائن لمدة ١١١ يوما رهن تحقيق مطالب المختطفين . وهى « وطن مستقل – حرية العقيدة وإطلاق سراح المسجونين السياسيين – العدالة – فدية مالية – التوجه الآمن إلى دولة يختارونها » .

لا يحدد المؤلف هوية المختطفين الأربعة ولكنه ينقل ما يرددونه من سباب

موجه ضد الكوماندوز الأمريكيين والبريطانيين المتوقع إرسالهم لاقتحام الطائرة ثم ينقل المؤلف عن الإرهابية قولها وهى تنفذ أول عملية قتل فى أحد الركاب :

« الشهادة تميز » – فلسوف تصبح مثل النجوم وسوف تصبح مثل الشمس ، ثم يختتم هذا الجزء بقيام الإرهابية عضو الجماعة التى اختطفت الطائرة بتفجير الطائرة فى الجو فوق القنال الإنجليزى .

* * *

فى الفصل الذى يحمل عنوان « ماهوند » يتحدث المؤلف عن حالات الهذيان التى تجتاح جبريل عندما يغرق فى رؤاه الذاتية عن تقمصاته الملائكية ، وكيف أن تلك الحالة العبورية تشبه نفس الحالة التى كان يتعرض لها الرسول الذى يصفه المؤلف على لسان جبريل « بطل القصة » بأنه التاجر أو رجل الأعمال ، ثم يتطرق المؤلف إلى الحديث عن اسم النبى قائلا « اسمه – اسم حلم – يتغير بالرؤية – ينطق بصورة صحيحة – أنه يعنى إلى من إليه يعود الحمد – ولكنه لن يستجيب لهذا الاسم فى هذا الموضع – إنه هنا ليس بمحمد وإنما يتبنى شعار الشيطان .. نبينا الذى اعتاد أن يتسلق الجبل – النبى الذى حفزه اعتزال البشر وأصبح عليه أن يتحول إلى مثير الرعب فى أطفال العصور الوسطى ، لقد أصبح اسمه ماهاوند – مرادف الشيطان .. إنه هو – ماهاوند التاجر .. الذى يتسلق جبل القائظ فى الحجاز وسراب مدينة يلمع أسفل منه بريق الشمس .

فى موقع آخر يتحدث المؤلف عن وفود السيدة هاجر وابنها إسماعيل إلى أرض الحجاز ويصف لحظة أن سألت السيدة هاجر زوجها سيدنا ابراهيم هل أمرك الله أن تتركنا هنا وحدنا – فيجيب عليها – نعم إنه كذلك – ثم يعلق

المؤلف على موقف ابراهيم « لقد تركها وذهب .. الوغد .. منذ البداية اعتاد الرجال أن يستغلوا اسم الله لكى يبرروا ما لا يمكن تبريره » .

ثم تحدث المؤلف عن سبب ورود الحجيج إلى نفس الموقع الذى ظهرت فيه بئر زمزم قائلا « ولكن لماذا يتوافد الحجيج إلى هذا المكان ؟ هل لكى يحتفوا بصمودها وتجاوزها المحنة وبقائها على قيد الحياة ؟ لا – لا – إنهم يحتفلون بشرف الزيارة التى قام بها .. لعلك خمنت من هو – قام بها إبراهيم .. إنهم يتجمعون باسم هذا الزوج المحب – يتعبدون وفوق كل شىء ينفقون أموالهم .

فى موقع آخر يتعرض المؤلف لموقف يصف فيه حوارا بين النبى من جانب وحمزة بن عبد المطلب وبلال بن رباح وخالد بن الوليد حول رغبة الرسول فى عقد صفقة مع أحد زعماء مدينة « جاهلية » التى يرمز بها إلى مكة ويدعى أبو سمبل بأن يقبل الاعتراف بألوهية ثلاثة من آلهة جاهلية وهى اللات وعزى ومناة فى مقابل صفح زعماء جاهلية عن اتباع ماهاوند والاعتراف بوجودهم رسميا فضلا عن اختيار ماهاوند لعضوية مجلس حكام المدينة .. ثم يستطرد المؤلف فى وصف سخرية حمزة من قول ماهاوند واعتراض بلال وخالد على اقتراح القبول بآلهة ثلاثة إلى جانب الله الواحد فى وجه محاولات ماهاوند اقناعهم باقتراحه . ثم يصور المؤلف بعد ذلك توجه ماهاوند إلى الغار أعلى الجبل للقاء ملاك الوحى . ولكنه هنا يلتقى بشخص جبريل فاريشنا بطل القصة الرئيسى مع مزج تصويرى بينه وبين ملاك الوحى جبريل تأكيدا لفكرة التجمد أو التخيل التى طرحها فى مقدمة الرواية .. وفى لقطة أخرى يصور ماهاوند بعد أن تلقى الوحى تتلى آيات يعترف فيها باللات والعزى ومناة كآلهة ترتجى شفاعتها . ثم يستطرد بقوله « تلكم هموا الغرانيق (الطيور) العلا وإن شفاعتهن لترتجى » فيهتز مجلس أبو سمبل وأتباعه بالسرور بينما ينطلق بلال وخالد وسلمان غاضبين لما أتى به ماهاوند بما يتناقض وفكرة التوحيد التى

بشر بها . ينتقل المؤلف إلى منزل هند زوجة أبو سمبل كبير الجاهلية وزعيمها وحيث تمكنت بواسطة أعوانها من اختطاف ماهاوند إلى منزلها وفى مواجهة لا تخلو من محاولات لفتنة ماهاوند تفاجئ هند النبى بأنها لن تقبل أن تكون اللات والعزى ومناة بنات للإله ولكن آلهة مثله يقفن منه موقف الندية . الأمر الذى يعنى أنها لا توافق على التسوية التى تم التوصل إليها بل ترى فى الحرب الملاذ الوحيد لحسم قضية الربوبية فى جاهلية .

ينتقل ماهاوند إلى الغار مرة أخرى لاستجلاب الوحى . وهنا يعود بنا المؤلف إلى شخصية جبريل فاريشنا الذى تجسد فى صلب الرواية شخص الملاك جبريل . ثم يبرز المؤلف ضجر جبريل من ماهاوند من الحاحه وقدرته على استنزال الوحى منه وهو الأمر الذى يؤدى إلى جولة من المصارعة بين جبريل وماهاوند – بين ملاك الوحى والنبى – تنتهى بقبول النبى بالهزيمة تحت أقدام جبريل . ثم يعلق المؤلف أن النتيجة هنا أمر منطقى لأنه لا يعقل أن يهزم كبير الملائكة ولأن الشيطان فقط هو الذى يهزم .

* * *

ثم يصور المؤلف صحوة النبى من غفوة الوحى لكى يكتشف من نفسه أن المعركة كانت بينه وبين الشيطان وأن الشيطان نفسه هو الذى سبق أن أوحى بآيات اللات والعزى ومناة وأنه لا مناص من تغيير النص ونسخ ما أنزل من آيات – هذا فى الوقت الذى يحلق فيه جبريل فى سماء جاهلية من وراء أعلى الكاميرات ارتفاعا – لكى يردد أن هناك أمرا واحدا يجب إيضاحه هو أنه كان الملاك والشيطان فى آن واحد – الله كان صوت الشيطان حينا وصوت الملاك حينا آخر . إنه هو الذى أوحى بالآيات وهو الذى أوحى بنسخها . إنه أوحى بالشىء وضده إنه أوحى بالأمر كله – هذا فى الوقت الذى انطلق فيه

النبى إلى ربوع جاهلية لكى يعلن فى الملأ أن الشيطان ألقى إليه السمع أول مرة – أما هذه المرة فقد أتاه الملاك الوحى وصرعه وأنه لا جدال فى ذلك ، ثم ينطلق ماهاوند إلى بيت الحجر الأسود حيث اللات وعزى ومناة لكى يعلن نسخ هذه الآيات الشيطانية من القرآن « هنا يذكر المؤلف كلمة القرآن صريحة » لكى يعلن « إنما هى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » . ثم يعقب أن الرسول وجد عقوبته على ذلك فى انتظاره عند عودته إلى بيته . فقد وجد زوجته خديجة قد فارقت الحياة وقد صور موتها بصورة بغيضة خالية من أى تكريم حيث صور نهايتها وقد فارقت الحياة وهى جالسة وظهرها إلى حائط غرفتها تحت إحدى النوافذ دون أحد يعينها لحظة احتضارها أو يرعى موتها من أهل بيتها .

يستطرد المؤلف محللا موقف خالد من نكوص النبى حيث ينقل عنه قوله « أيها النبى – لقد ارتبت فيك ولكنك كنت أكثر حكمة مما نعرف لقد قلنا فى بادئ الأمر إن ماهاوند لن يقبل بالحل الوسط ولكنك قبلت به ثم قلنا إن ماهاوند قد خاننا ولكنك كنت تأتينا بحقيقة أعمق – لقد أتيت لنا بالشيطان نفسه حتى يتسنى لنا أن نشهد أعمال الشيطان ثم نشهد هزيمته بقول الحق – لقد أثريت إيماننا إنى لآسف لما ظننت فيك » .

ثم ينقل المؤلف تعليق النبى قائلا « نعم المرارة والشك – إنه لشىء عجيب ما فعلت – الحقيقة الأعمق أن آتيكم بالشيطان – نعم فإن ذلك الأمر يشبهنى » .

وينتقل المؤلف لتصوير استعار الحرب بين أهل جاهلية وأتباع النبى الأمر الذى يدفعهم إلى الهجرة إلى يثرب وفى أثرهم النبى هاربا على حد قوله .

ينتقل المؤلف فى فصل متأخر إلى وصف أحوال الدولة الجديدة فى يثرب حيث ينتقد ويشهر فى سخرية واضحة بحرص النبى على تنظيم حياة أتباعه

وفرض القوانين المنظمة لأمواهم وعلاقاتهم فيقول : فى يثرب وبين أشجار النخيل ظهر جبريل للنبى ووجد نفسه يصدر التشريع تلو الآخر .. تشريعات .. تشريعات .. تشريعات .. إلى الدرجة التى أصبح من النادر معها أن يتوقعوا المزيد من الوحى .. وفى هذا الصدد يذكر سلمان الفارسى أنه كان هناك قوانين حول كل شىء . فإذا أخرج رجل حاجة منه فليدر وجهه نحو النزع – وتشريع آخر حول اليد التى يستخدمها الإنسان فى نظافة مؤخرته وبدا الأمر كما لو كان كل شىء فى حياة البشر يتعين تنظيمه ، لقد أخبر الوحى والقرآن المؤمنين عن حجم ما يأكلون – وإلى أى حد يروحون فى غياهب النوم وأى الأوضاع الجنسية تتفق والتشريع إلى الدرجة التى علموا معها أن اللواط أمر مباح بينما الأوضاع غير المسموح بها تشمل كل الأوضاع التى تعلو فيها المرأة على الرجل .. كما حدد جبريل كل الموضوعات المسموح والممنوع مناقشتها .. لقد منع جبريل على المؤمنين أكل برغوث البحر وطلب أن تقتل الحيوانات ببطء بواسطة إدمائها حتى يمكن من خلال التعرف على تجربة موتها معرفة معنى حياتها لأنه فقط عند الموت يدرك البشر حقيقة الحياة وإنها ليست مجرد حلم .. كما حدد جبريل ملك الملائكة أسلوب دفن الإنسان وكيف تقسم تركته – هكذا كان الوحى إلى الدرجة التى جعلت سلمان الفارسى يتساءل أى نوع من الآلهة هذا الأقرب فى تكوينه إلى رجل الأعمال .. لقد حدث هذا عندما دمر سلمان عقيدته الذاتية لأنه تذكر أن ماهاوند نفسه كان رجل أعمال وأنه كان رجل أعمال ناجحا بلا غرو .

* * *

بعد ذلك بدأ سلمان يلاحظ إلى أى درجة كان وحى الملاك نافعا ومناسبا فى وقته تماما إلى درجة أنه عندما كان المؤمنون يجادلون آراء ماهاوند فى أى موضوع من احتمال غزو الفضاء إلى خلود الجحيم . فلقد كان الملاك الوحى

يأتى بالرد ويحسم بالاجابة وكان دائما فى صف ماهاوند مؤكدا بما لا يدعو للشك إنه من المستحيل أن يفكر الإنسان فى السير على القمر . كما جزم بأنه حتى بالنسبة لأكثر الناس ارتكابا للشر فلسوف يتم تطهيرهم فى نار جهنم وسوف يجدون طريقهم فيما بعد إلى حدائق الجنة المعطرة .. وعليه شكا سلمان عما إذا كان ماهاوند يأخذ مواقفه بعد تلقى الوحى من جبريل .. ولكن لا .. إنه كان يضع القانون وكان الملاك يعتمده ويؤكده فيما بعد .. إن ذلك يجب أن يكون هو تلك الرائحة التى تحيط بهذه المخلوقات الاسطورية القذرة المسماة ببراغيث البحر .. هذه الرائحة العفنة بدأت تثير هواجس سلمان الذى كان يعد من أكثر أتباع ماهاوند علما ودراية نظرا للنظام العلمى الراقى المطبق فى بلاد فارس . وهو الأمر الذى أهله لكى يكون كاتب وحى الرسول . لقد أخبر سلمان صديقه بعل أن الأوضاع ازدادت سوءا مع الرسول مع مرور الأيام . فبرغم انه أنقذ يثرب من غزو أهل جاهلية باقتراحه حفر الخندق ومع كثرة التشريعات المنزلة فى كل كبيرة وصغيرة فإن اسمه لم يذكر فى آية واحدة ، بل أصبح موضع كراهية الكثيرين كما ألمح سلمان لصديقه عن القواعد والأوامر والنواهى التى نزلت فى النساء والتى جاءت لتطويع نساء المدينة ثم وصف الرسول بأنه كان ساحرا لأنه أخضع نساء يثرب برغم كل ماهو معروف عنهن من استقلال فى الرأى وحرية .

ثم نقل عن سلمان وهو فى جلسة يحتسى الخمر مع صديقه « بعل » كيف شرع فى اختبار صدق الرسول وكيف بدأ فى تغيير بعض الآيات : فحينما كان الرسول يقول السميع العليم كان يكتبها العليم الحكيم . وأن ماهاوند لم يلاحظ هذه التغييرات ؛ وهكذا كان سلمان – على حد قوله – يفسد كلمة الله بلغته المستهجنة . ثم يقول المؤلف على لسان سلمان الفارسى « لقد غيرت حياتى من أجل هذا الرجل » يقصد النبى » .. لقد تركت بلدى وعبرت العالم – وعاشرت صنفا من البشر كانوا يعتبروننى كما مهملا من

العجم .. لقد بدأت أغير فى كتابة ماكان يقوله النبى .. وكان النبى يعنفنى بقوله ماذا بك ياسلمان هل أنت أصم ؟ وكنت أعتذر عن سهوى ولكنى كنت أكتب ما أريد ولم يشعر أحد بشيء – وواصلت هذا العمل ولكنى قررت أن أجرى تغييرا أكبر فحينما قال النبى فى موضع « النصارى » كتبت بدلا منها « اليهود » لعله لاحظ ذلك ولكنى عندما أعدت القراءة عليه على الوضع الجديد أومأ بالموافقة وشكرنى على ذلك بأدب جم .. لقد أيقنت أن أيامى أصبحت معدودة فى يثرب ولكن ما بيدى – لقد كان علىّ أن أستمر فيما بدأته .. لعله ليس هناك ما هو أشد مرارة من رجل يكتشف أنه كان يؤمن بشبح .. إنى أدرك أنى سأسقط ولكنه سيسقط معى ولذلك آثرت أن أواصل عملى الشيطانى مغيرا الآيات حتى جاء يوم قرأت على النبى ماكتبته ورأيت وجهه مقطبا وقد بدأ يهز رأسه كما لو كان يريد أن يستجلى ماذكره ثم أومأ بالموافقة ببطء ولكن بقدر من الشك فيما سمع ثم استطرد سلمان لصديقه بعل إنه قرر الهرب إلى جاهلية ولكنه يعرف أن النبى يطلب دمه .

يصور المؤلف دخول الرسول إلى مكة وإعلان عهد الأمان لأهلها ، ثم ينقل صورة فاضحة لإعلان هند زوجة أبوسمبل زعيم جاهلية « رمز مكة » إسلامها أمام الرسول وكيف القت بنفسها على أقدام الرسول تقبل أصابع قدمه وتلعقها وهو يدفعها عنه دون أن يعرف هويتها وعندما تكشف عن وجهها أمامه قال إنى لم أنس ياهند « إيماء إلى أول لقاء معها فى بيتها » لقد أعلنت خضوعك ياهند ومرحبا بك فى خيامى .

* * *

ينتقل المؤلف ليصور رواج الدعارة فى جاهلية بعد عودة الرسول وزوجاته إلى يثرب ثم يتمادى فى التشهير بنساء النبى بقوله : إن عاهرات جاهلية يقصد « مكة » اعتدن أن ينسبن إلى أنفسهن اسماء زوجات النبى . ثم ينقل عن إحدى

العاهرات قولها « عن هذا الحريم – تقصد نساء الرسول – لا يتحدث الرجال عن أى شيء آخر هذه الأيام .. ولا عجب أن ماهاوند قد عزلهن ولكن هذا الاجراء جعل الأمور تزداد سوءا .. فالناس تهيم بخيالات أكثر مما لا يستطيعون رؤيته » .

وحول معالجة البقاء فى مكة يقول المؤلف : إن النبى أمر خالد بن الوليد ألا يتشدد ثم نسب للنبى أنه قال « إن سكان جاهلية مؤمنون جدد وعليك أن تأخذ الأمور بتؤدة لأن معظم الأنبياء السابقين اتفقوا على فترة انتقالية » ثم يستطرد المؤلف إنه فى غياب النبى توافد رجال جاهلية إلى بيوت الدعارة فيها أفواجا وزادت نسبة ترددهم ٣٠٠٪ ثم أضاف : إن العاهرة ذات الخمس عشرة سنة التى أطلق عليها اسم « عائشة » كانت أكثر العاهرات شعبية بين رواد هذه الأماكن .. وعلى غرار « عائشة » التى تعيش فى مقر الحريم الملحق بالمسجد الكبير – غدت عائشة التى تقطن جاهلية أكثر غيرة على موقعها المتميز بين قريناتها . أما أكبر العاهرات وأكثرهن سمنة والتى كانت قد أخذت اسم « سودة » فكم كانت تقص على روادها كيف أن ماهاوند تزوجها هى وعائشة فى نفس اليوم عندما كانت عائشة مجرد طفلة صغيرة – فقد كان مما يثير الرجال أن أذكر أنه وجد النصفين فى زوجته الأولى – الطفلة والأم أيضا . كما أشار المؤلف إلى عاهرات تسمين بأسماء لزوجات النبى على شاكلة حفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وجويرية وصفية وميمونة وماريا القبطية ثم يتطرق المؤلف إلى خلاف طرأ بين النبى وزوجته عائشة التى دأبت – على حد قول سلمان الفارسى – على الشكوى من رغبة النبى فى المزيد من الزوجات بدعوى عقد مصاهرات وكسب المزيد من التأييد السياسى . وكيف أن الوحى ساند موقف الرسول وأباح له نكاح – استعمل لفظا خارجا – أى عدد من النساء . ثم يتطرق سلمان إلى قصة تخلف عائشة وما أثير حولها من شائعات تطعن فى شرفها وعفتها فيقول « إن عائشة وصفوان كانا وحيدين

فى الصحراء لعدة ساعات وقد ألمح إلى ذلك غير ذات مرة وبصوت مسموع أن صفوان كان شابا فى شرخ الصبا وكان النبى أكبر سنا من عائشة – على أى حال – ربما انجذبت عائشة إلى شخص ما أشد قربا من سنها – إنها فضيحة » هكذا علق سلمان ضاحكا .

ثم يستطرد سلمان – أن النبى ذهب كالعادة إلى ملاك وحيه ثم أبلغ عن جبريل إنه برأ عائشة ثم عقب قائلا : إن سلمان مد ذراعيه فى استسلام متواضع « هذه المرة لم تشك السيدة حول غبن التشريعات السماوية » .

* * *

هكذا تمضى الرواية ..

وأرجو أن يغفر لى القارئ ما فى هذا التلخيص من بذاءة وإسفاف وتطاول على مقام الرسول وأهل بيته ، وعلى الوحى والكتاب ، بل على الله سبحانه وتعالى .. ولكن لابد من معرفة ماقاله هذا الكذاب المدعى لكى نحكم عليه حكما صحيحا ونعرف كيف أنه أراد عن قصد استفزاز مشاعر المسلمين فى العالم كله ، وأراد أن يدفعهم دفعا إلى الهجوم عليه .

ومع ذلك فقد سئل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر عن موقفه من سلمان رشدى فقال : إنه يحتقر هذه الرواية وكاتبها ، وإنه يستنكر القتل وإهدار الدم فى نفس الوقت ، فليست هذه هى الوسيلة التى تناسب الإسلام للدفاع عنه ، ولكنه فقط يطلب شيئا واحدا ، أن تؤلف لجنة من ثلاثة من أكبر علماء الأديان فى العالم : أحدهم عن الدين المسيحى ، والثانى عن الدين اليهودى ، والثالث عن الدين الإسلامى ، وتكون مهمة هذه اللجنة التحقيق فى الوقائع التى جاءت فى هذه الرواية ، وتسأل مؤلفها : من أين أتى بها ؟ .. هل لديه مصادر تاريخية محترمة أو غير محترمة

استقى منها هذه المعلومات ؟ ، فإذا تبين لهذه اللجنة أن الوقائع التى جاءت فى الرواية كذب وافتراء فعليها أن تعلن ذلك وتقول للعالم إن سلمان رشدى كاذب اخترع هذه الإساءات من عنده وإن الإسلام برىء من كل ماجاء فى هذه الرواية .

* * *

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن سلمان رشدى ليس أول ولا آخر من يتهجم على الإسلام .

وكما فى الغرب كتاب أنصفوا الإسلام مثل ليسنج فى ألمانيا الذى كتب فى القرن الثامن عشر يقول : إن المعلومات التى كانت رائجة فى القرن السادس عشر عن محمد وتعاليمه كانت أخبارا مختلطة بالكثير من الأكاذيب التى كان المجادلون المسيحيون يقومون بترويجها على أنها حقائق .. وإن أول معرفة أمينة عن محمد وتعاليمه جاءت عن طريق مؤلفات ريلاند المستشرق الهولندى الذى توفى عام ١٧١٨ وجورج سيل المستشرق الإنجليزى الذى توفى عام ١٧٠٣ وترجم معانى القرآن .. وقد أظهرت مؤلفات هذين المستشرقين أن محمدا ليس دجالا كما روج السابقون ، وإن دينه ليس مجرد نسيج من الأباطيل والمتناقضات كما قالوا .

ولكن سلمان رشدى جاء ليعيد صفحات سوداء من المغالطات والأكاذيب الغربية تعبيرا عن العداء للإسلام .

ومهما كانت سفالة سلمان رشدى فقد كان فولتير أديب فرنسا الكبير أكثر سفالة منه .. حين كتب فى عام ١٧٤١ مسرحيته « التعصب : أو النبى محمد » وهاجم فى شخص الرسول ﷺ كل الأنبياء ، وأهدى مسرحيته إلى البابا ، وحين عرضت هذه المسرحية فى باريس عام ١٧٤٢ احتج عليها السفير

العثماني لدى فرنسا وعقد مؤتمرا لكُتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة عرضها .

وكان فولتير يقول فى مسرحيته إن محمدا ﷺ منافق ، دجال ، عديم الحياء ، مستبد ، تحركه النوازع الحسية ، ويدفعه التعطش للدماء .. الخ . ويعلق الدكتور محمود حمدى زقزوق على ذلك بأن فولتير كان يعلم تمام العلم أن ذلك كله غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية ..

ومن الغريب أن فولتير له مقالة عن الأخلاق يصف فيها محمدا بأنه « رجل عظيم جمع فى شخصه بين الفاتح ، والمشرع ، والواعظ ، والحاكم ، والذى قام بأعظم الأدوار التى يمكن أن يقوم بها إنسان على ظهر الأرض » ويعلق الدكتور زقزوق أيضا بأن التناقض فى موقف فولتير من الإسلام يشير إلى أن رأيه الأخير هو الرأى الذى كان مقتنعا به فى حقيقة الأمر . وقد ذاع هذا الرأى الأخير وانتشر فى الأوساط الثقافية فى فرنسا فى ذلك الزمن ، وأصبح محمد موضوعا للحديث فى صالونات ذلك العصر ، وتأثرت الأكاديميات العلمية بذلك وأعلنت عن مسابقات وجوائز لموضوعات عن محمد وتعاليمه وتأثيره .

* * *

هكذا نرى أن سلمان رشدى ليس أول من هاجم الإسلام ولن يكون آخرهم .. ولم يستطع أحد أن ينال من هذا الدين العظيم .. وإذن فلا خوف على الإسلام ، ولاخطر من سلمان رشدى ، ولا من مئات من أمثاله .

وكان الأجدر أن نقول لأنفسنا وللعالم : الكلاب تنبح ، والقافلة تسير .. والإسلام أقوى وأعظم من أن ينال منه هذا القزم الذى لم يكتب عن إيمان أو عقيدة أو اقتناع بما يكتب ، ولكنه قدم سلعة فى سوق وهو يعرف أنها

سلعة مطلوبة ، وأن هناك من ينتظرها ويدفع فيها الملايين ، وقد كسب الملايين فعلا ، وانتقل من السكن فى شقة متواضعة فى أحد أحياء لندن إلى قصر تحيط به الأسلاك الشائكة والحراس وأجهزة الإنذار الالكترونية فى أرقى الأحياء ، وتضخم رصيده فى البنوك ، ولكنه فى النهاية سيذهب إلى مزبلة التاريخ . ولن يذكره أحد بعد سنوات قليلة .. وسيلقى فى جب النسيان مع مئات من أمثاله حاولوا هدم الإسلام وفشلوا .. وسيحاول غيرهم كثير وسيفشلون أيضا .

فلا خوف على الإسلام ..

وما يعنينا هو أن نرى ، وأن نفهم ، ماذا يجرى هناك ، ونعلم ما فى القلوب والضمائر .. ونلمس أن أعداء الإسلام يجندون المرتزقة فى كل عصر ، ويجتذبون ضعاف النفوس ، ويدفعون لهم بسخاء لمجرد الإساءة إلى الإسلام والمسلمين .

* * *

ولم يكن موقف الإمام الأكبر تعبيرا عن رأى شخصى ، ولكنه كان موقف الأزهر ، قلعة الإسلام المستنير ..

وأفتى فيه فضيلة الدكتور عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر وأعلن أن قرار الخمينى بإهدار دم سلمان رشدى مخالف للقواعد والأصول الإسلامية ، لأنه لا يجوز إصدار حكم على إنسان فى غيبته ودون مواجهته بما هو منسوب إليه واعطائه فرصة للدفاع عن نفسه .

وأعلن الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية أنه لابد من مناقشة سلمان رشدى فيما كتب ومن أين استقى هذه المعلومات الكاذبة ، واعطائه فرصة للتوبة .

وكذلك أعلن مفتى تونس الشيخ مختار سلامى أن رواية سلمان رشدى تتجاوز مجال ممارسة الحرية الفردية إلى مجال الإهانة للإسلام والمسلمين وهى تعبر عن الكراهية والتعصب ضد الإسلام .

وهكذا كان الرأى فى كل العواصم الإسلامية ..

واعتقد أن رأى الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى يعبر عن موقف المسلمين جميعا .

فقد قال إن سلمان رشدى استهزأ واستخف بكل ما يجب احترامه وتوقيره فى شريعة الإسلام . استهزأ واستخف بالقرآن الكريم ، وبالملائكة ، وبالرسل ، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ ، وبالصحابة ، وبأمهات المؤمنين ، وبشرائع الإسلام وأحكامه وآدابه ..

وفى هذا الكتاب ما ينفر كل عقل سليم ، فقد انحدر المؤلف فى بذاءاته وخرافاته وافتراءاته إلى أسفل الدركات .

وتساءل الإمام الأكبر : هل الذى يكتب هذه السفاهات فى مئات الصفحات ، بالرمز والتصريح ، أيكون جاهلا بأحكام شريعة الإسلام ؟

وأجاب : إن الذى نرجحه – بل نؤكده – أن هذا الكاتب كان فاهما لكل ماتفوه به من أكاذيب ، وإنه كتب ماكتب من خرافات عن عمد وسوء نية ، وإنه كان عارفا لما هو حلال وما هو حرام فى شريعة الإسلام .

ما العمل مع سلمان رشدى ؟

يجيب الإمام الأكبر : نطالب بمقولة أمام لجنة علمية عادلة تعلن على العالم أنه كاذب .. وعلى كل مسلم عاقل أن يواجه هذا الفكر الفاسق بالإهمال والمقاطعة ، حتى يدركه مصيره المحتوم .. ومن أراد أن يعرف شرائع الإسلام فليأخذها من أهل العلم بالاسلام لا من غيرهم من أهل الفسق .. والله تعالى

الذى يعلم السر والخفى سيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ..

وهذا ماكنت أقوله فى محاوراتى فى بريطانيا كلما وجدت سائلا يسألنى : لماذا تحاربون سلمان رشدى وتمارسون عليه الإرهاب وتحاولون قتله ؟ .. ولماذا يضيق المسلمون دائما بمن يختلف معهم ؟

أقول لهم ما قاله الإمام الأكبر وأضيف إليه : اقرأوا ما قاله ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز عن الإسلام لتعرفوا بعض الحقائق عن هذا الدين العظيم على لسان مسئول غربى غير مسلم .

نظرية استعمارية جديدة !

فى المانيا رأيت .. وسمعت .. ولمست .. ما لم أكن أتصور . !

لم أكن أتصور أن تخوف الغرب من الإسلام والمسلمين قد وصل إلى هذا الحد ..

ولم أكن أتصور أن كبار المفكرين ورجال السياسة فى أوربا يأخذون مأخذ الجد النظرية التى تقول : إن الإسلام هو العدو القادم للحضارة الغربية .. وإنه العدو الأكبر .. وإنه دين يحمل فى داخله عوامل التخلف .. والعنف .. والجهل .. !

وعندما حضرت اللقاءات التى تحدث فيها فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى وهو يشارك فى حوارات طويلة ومتشعبة مع أكبر العقول الألمانية ..كنت أشعر أن كثيرًا مما يقوله المفكرون الألمان ليس إلا نوعا من الوهم .. أو الخيال .. أو هو – فى أحسن الأحوال – جهل شديد بالإسلام .. ولاشك أن حكمة الإمام الأكبر .. وصبره .. وبمنطقه الهادئ الذى يخاطب العقول .. استطاع أن يقدم صورة حقيقية عن الإسلام ومبادئه وشريعته فى سماحتها .. وإنسانيتها .. واتفاقها مع حقائق العلم والعقل .. ومسايرتها لتطور الحضارة الإنسانية فى كل عصورها .. ولكن الإمام الأكبر لم يزر الا عددا محدودا من بلاد الغرب .. ولم تصل كلمته إلى بقية دول القارة .. ومازالت الأفكار السامة المسمومة منتشرة وتلقى من يروِّج لها كل يوم إلى أن يأتى يوم وتصبح حقيقة من حقائق الحياة المعاصرة لا تقبل الجدل ولا النقاش ..

والانطباع الشخصى الذى خوجت به من هذه اللقاءات أن النظرية

الجديدة التى تنتشر فى الغرب هى نظرية غاية فى الخطورة .. وأنها مقدمة لما هو أشد خطرا مما سيجئ به المستقبل ..

* * *

والحكاية بدأت بمقال نشر فى أمريكا ..

مجرد مقال كتبه أستاذ مجهول اسمه فرانسيس فوكوياما ، كان يعمل نائبا لمدير مجموعة السياسة بوزارة الخارجية الأمريكية ، أى أنه أحد المسئولين عن التخطيط السياسى للولايات المتحدة .. وإن كان مستواه أقل كثيرا من أن يكون قادرا على إدارة دفة السياسة الأمريكية إلا أنه – بالتأكيد – على علم ببعض أسرار وخفايا ونوايا السياسة الأمريكية .. وترك منصبه فى وزارة الخارجية ليصبح مستشارا لمؤسسة راند كوربوريشن فى واشنطن .. ومن يعرف أسرار المجتمع الأمريكى يعرف أن المؤسسات الاقتصادية والمالية والشركات الكبرى .. مع الإدارة الأمريكية ..مع المخابرات المركزية .. بينها تنسيق بحيث تتبادل المعلومات ويتم توزيع الأدوار بينها ..

المقال الغريب ظهر فى عام ١٩٨٩ بعنوان « هل هى نهاية التاريخ » نشره فى مجلة « ناشونال انترست » .. قال فيه : إن الحضارة الإنسانية ظلت تاريخها كله فى صراع مستمر .. وكل حلقة من حلقات الصراع تنتهى بهزيمة نظام وانتصار نظام .. لحقت الهزيمة بالنظام الملكى الوراثى .. وبالفاشية .. وأخيرا بالشيوعية .. وانتصر أخيرا النظام الليبرالى الغربى .. وكانت نظرية ماركس ولينين ترى أن الصراع الأخير بين الرأسمالية والشيوعية سينتهى بانتصار الشيوعية فتسود العالم كله ، وتختفى الرأسمالية من الوجود ، فينتهى الصراع ، وتصل البشرية إلى مرحلة أسماها ماركس ولينين « نهاية التاريخ » أى نهاية الصراع بين النظم السياسية والاقتصادية وسيطرة نظام

واحد على العالم كله هو الشيوعية .. ثم ثبت خطأ ماركس ولينين لأن العكس هو الذى حدث .. انهزمت الشيوعية وانتصرت الرأسمالية وحسم الصراع بينهما .. وقد تكون هذه هى نقطة النهاية فى التطور الايديولوجى للإنسانية .. والصورة النهائية لنظام الحكم البشرى وبالتالى فهى تمثل « نهاية التاريخ » .. فالنظم السابقة كانت فيها عيوب خطيرة أدت إلى سقوطها ، أما الليبرالية الغربية فهى خالية من العيوب والتناقضات .

إلى هنا والمسألة فكر فى فكر .. رجل أراد أن يقول : إن النظام الليبرالى الغربى هو آخر وأكمل ما وصلت إليه البشرية وليس بعده صراع ولا تطور .. فهو آخر حلقة من حلقات تطور الفكر الإنسانى والنظم السياسية والاقتصادية .. وهو حر فى أن يقول ما يريد .. ولكنه بعد ذلك قال : إن هناك عدوا قادما للحضارة الغربية هو الإسلام .. لأنه نظام قائم على عقيدة .. فهو ايديولوجية ستصبح هى النقيض للايديولوجية الغربية .. وبالتالى لابد أن ينتصر أحدهما وينهزم الآخر لأن العالم لن يستمر فى حالة صراع بين العقيدتين : الغربية والإسلام .. ثم أضاف – ربما على سبيل التمويه – إن حضارة الغرب سيكون عليها كذلك أن تخوض صراعا مع الحضارة الآسيوية عموما ومع اليابان على وجه الخصوص .. !

إلى هنا والمسألة أصبحت تخصنا ..

أصبحنا طرفا فى الموضوع دون أن ندرى ..

والغريب أن هذه النظرية الضعيفة فى بنائها الفكرى وفى مقدماتها ونتائجها وجدت من ينشرها .. ومن يشرحها .. ومن يروّج لها ..ومن ينفخ فيها .. وأصبح الرجل المجهول فرانسيس فوكوياما من أعلام القرن العشرين ..كل جامعة تدعوه ليشرح نظريته .. وكل مجلة وصحيفة تذهب إليه ليتحدث إلى ملايين القراء عن هذا الفتح المبين .. وعلماء ومفكرو فرنسا

وألمانيا وبريطانيا وسويسرا يلتقون مع هذا العبقرى المجهول ليناقشوا معه هذه النظرية .. وليذهبوا إلى جامعاتهم ومراكز أبحاثهم لينشروا الفكرة ..

ونحن – طبعا – فى حالة النوم العميق التى اعتدنا عليها ..

قرأنا نظرية فوكوياما واكتفينا بالابتسام على سذاجة وسطحية هذا الرجل .. وعلمنا أن نظريته تنتشر فى الغرب وتصل إلى طلبة الجامعات وأهل الفكر والرأى ولم يزعجنا ذلك .. تصورنا – كالعادة – أن مثل هذا الكلام ليس إلا من قبيل الرياضة العقلية التى يسلى المثقفون بها أنفسهم ..

والحقيقة كانت غير ذلك ..

الحقيقة أن كثيرا من المفكرين فى الغرب صدَّقوا هذه النظرية .

واستقر فى أذهانهم أن « الإسلام » هو العدو القادم الذى يهدد حضارة الغرب وثروته وعلومه وتقدمه .. !

ولم نتحرك نحن ..

كالعادة كان لابد أن يحدث زلزال وتنهدم البيوت فوق رؤوسنا لكى نفيق ونفكر فى حماية أنفسنا .. بعد فوات الأوان طبعا .. !

* * *

وبعد سنوات ظهر مفكر آخر .. فى أمريكا أيضا .. ونشر أيضا مقالا صغيرا فى مجلة « فورن افيرز » بعنوان : « صراع الحضارات » .. الرجل اسمه صمويل هنتنجتون .. وملخص نظريته أن تاريخ الحياة على الكرة الأرضية هو تاريخ الصراع بين حضارات .. وكان الصراع الأخير بين الحضارة الغربية التى تمثلها أمريكا وأوربا بنظامها الليبرالى .. وبين الحضارة الشيوعية التى كانت تقودها روسيا ودول « الاتحاد السوفيتى » السابق وأوربا الشرقية .. وانتهى هذا الصراع بهزيمة الشيوعية وانتصار الحضارة الغربية .. ولم يعد

للحضارة الغربية إلا عدو واحد فى العالم هو : « الإسلام » . فهو دين وحضارة وثقافة .. وهناك حوالى الف مليون مسلم يعتنقون هذا الدين .. لهم أفكار ومعتقدات وميراث ثقافى وحضارى مختلف تماما عن الغرب .. وهم يريدون أن يفرضوا عقيدتهم بالقوة .. بالعنف .. بالإرهاب .. بتدمير الحضارة الغربية .. المسلمون هم التهديد الأخير .. وهم الخطر الماثل أمام الغرب كله .. وإما أن يقضى الإسلام على الغرب .. وإما أن يقضى الغرب على الإسلام .

نظرية غربية جدا ..

لم تخطر على بال أحد فى العالم الإسلامى ..

ولكن هنتنجتون .. وقبله فوكوياما .. كان هدفهما استغلال ظاهرة العنف والإرهاب فى إيران مثلا أو فى أفغانستان أو الجزائر ليقول : إن هذا هو الإسلام .. والمسلمون متشددون .. عصبيون .. لديهم هوس دينى .. عقولهم مغلقة .. يريدون العودة إلى عصر السلف الصالح بأن يعيشوا فى الخيام ويأكلوا من لبن الأغنام ويهدموا كل إنجازات العلم والحضارة فى الغرب .. ووسيلتهم التفجير .. والقتل غدرا .. وتكفير الناس .. وإهدار دم من يخالفهم فى الرأى أو العقيدة ..

ثم حدث شىء غريب ..

المقال الصغير الذى نشر فى مجلة أمريكية متخصصة فى السياسة الخارجية أصبح مشهورا ومنتشرا فى كل المؤسسات العلمية فى كل دول الغرب ..

وأصبحت أفكار هنتنجتون تتردد على أنها حقيقة ثابتة غير قابلة للجدل ..

الإسلام هو العدو الجديد للغرب ..

والصراع بين الإسلام والغرب صراع حتمى لا مهرب ولا مفر منه ..

ولابد أن يستعد الغرب لهذا الصراع ..

ولابد أن يعد الغرب نفسه لكى ينتصر على الإسلام أو ينهزم الغرب إلى الأبد ويعود إلى القرون الوسطى المظلمة .. !

كل هذا ونحن – كالعادة – نيام .. !

لا نعلم .. وإذا علمنا لا نصدق أن هذه الأفكار الغربية يمكن أن تكون محركا لسياسات ..

* * *

والقضية إذا ظهرت أمامنا وكأنها هزل .. أو من قبيل التخاريف ..فإن المفكرين فى الغرب يأخذونها مأخذ الجد .. وهنا أساتذة .. ومعاهد .. ومؤسسات .. وجهات ظاهرة وخفية تخطط على أساسها .. !

الفكرة ليست وليدة اليوم .. ولكنها قديمة ..

الفكرة أن الغرب له مصالح فى العالم الإسلامى .. العالم الإسلامى هو أرض البترول الذى تعتمد عليه الحضارة الغربية .. والسوق الواسعة للمنتجات الغربية التى تنقل ثروات العالم الإسلامى إلى الغرب ..والتاريخ القديم والحديث هو حلقات من تاريخ الصراع بين الغرب والعالم الإسلامى ..ليس صراع عقائد .. وليس صراع ديانات .. وليس صراع حضارات ولا ثقافات .. ولكنه صراع مصالح .. مصالح الغرب مرتبطة ببقاء العالم الإسلامى منقسما وجاهلا ومتخلفا ومنشغلا بصراعاته الداخلية ..صراعات بين بلاد إسلامية وبلاد إسلامية أخرى تنهزم فيها دولة إسلامية وتنتصر فيها دولة إسلامية أخرى لتنهزم فى صراع آخر .. ! صراعات داخل كل بلد مسلم .. مجموعة تحكم على مجموعة أخرى بأنها كافرة وتتربص بها

لتقتلها .. والمجموعة الأخرى تحشد قوتها وتبدد ثروتها فى أسلحة للدفاع عن نفسها .. صراعات بين مسلمين وأقباط .. وبين المسلمين والهندوس .. وبين السنة والشيعة .. ليس مهما موضوع الصراع .. المهم أن يظل العالم الإسلامى .. وتظل الشعوب الإسلامية مشغولة وخائفة ومتربصة .. وبذلك تبقى سوقا مفتوحة للغرب ..

تاريخ طويل .. منذ الحروب الصليبية حتى اليوم ..

وفى كل مرحلة تظهر أساليب جديدة وشعارات جديدة لتحقيق نفس الهدف .. انتهت الشعارات القديمة مثل نشر المسيحية ، وحرية التجارة ، والقضاء على نظام الرق والعبيد ، وحماية الأقليات الدينية والقومية ، وانتهى عصر تجمع جيوش فرنسا وإيطاليا وانجلترا والمانيا لغزو العالم الإسلامى تحت شعار « تحرير أورشليم » و « قبر المسيح » من السيادة الإسلامية منذ أكثر من ٩٠٠ سنة .. وانتهى عصر الاحتلال العسكرى بجيوش بريطانيا وفرنسا ..

فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر .. وخلال ١٧٥ سنة قامت ثمانى حملات صليبية كبرى .. فى الحملة الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩) اشترك أكثر من ١٠٠ الف مقاتل استولوا على فلسطين بما فيها القدس وعلى جزء من الأردن ولبنان وسوريا وتركيا وأسسوا مملكة القدس ودويلات إقطاعية تابعة لها فى طرابلس ، وانطاكية ، والرها ، وقتلوا عشرات الآلاف من المسلمين .. حتى أن جامع عمر فى القدس - كما يقول مؤرخو هذه الحملة - كان غارقا فى دماء المسلمين .. وظل هذا الوضع قائما إلى أن ظهر صلاح الدين الأيوبى ووحد أهل سوريا وفلسطين ومصر والعراق ولبنان واستطاع أن يسحق قوات الصليبيين عام ١١٨٧ وحرر القدس وفلسطين وقسما كبيرا من لبنان وسوريا وكانت موقعة « حطين » هى الفاصلة .. ثم ظهر « مشروع » غربى آخر لغزوة قادها امبراطور المانيا فريدريك الأول فى

يونية ١١٩٠ ولكنه غرق واتهزم جيشه ومزق صلاح الدين جيش الغزاة مرة أخرى .. وفى القرن الثالث عشر حاول الصليبيون مرة أخرى ولكنهم كانوا ينهزمون حين يتوحد المسلمون ، وينتصرون حين يختلف قادة المسلمين بعد رحيل صلاح الدين .. وفى سنة ١٢٩١ سقطت قلعتهم الأخيرة فى فلسطين .. قلعة عكا ..

ذلك تاريخ قديم مضى .. وانتهى .. لا نذكره لإحيائه مرة أخرى .. ولكن فقط لنقول : إن الغرب فى مرحلة كان يعبر عن صراع المصالح بينه وبين العالم الإسلامى بالغزو الصريح المباشر ..

وفى التاريخ الحديث ..

حين أراد مصدق وهو رئيس وزراء إيران تأميم البترول الإيرانى كان مصيره القتل والفشل ..

وحين أراد عبد الناصر بناء حضارة حديثة كان مصيره هزيمة ٦٧ ..

والمسألة لم تكن أبدًا صراعا بين الغرب والإسلام .. ولكنها كانت صراعا على ثروة العالم الإسلامى ..

* * *

الإسلام فى ذاته كدين ليس دين إرهاب .. ولا عنف .. ولا قتل .. ولا تخريب ..

وأى طفل يقرأ القرآن . أو الأحاديث الصحيحة .. أو كتب التفسير المعتمدة التى لم تدخلها الإسرائيليات والتحريفات .. سوف يرى أن الإسلام دين رحمة .. وتعاون .. ودعوة للتفكير والعلم والتقدم .. لكن هذه الحقيقة البسيطة غائبة فى مراكز البحث وفى الإعلام الغربى بشكل عام ..

فى الغرب الآن خوف وقلق من الإسلام .. بل هناك حالة حساسية مرضية

من الإسلام والمسلمين .. ويجب ألا ننسى أننا نعيش فى عصر القوى الدولية غير الحكومية .. والعلاقات الدولية ليست فقط علاقات وتفاعل دول وحكومات .. هناك قوى غير حكومية قد لا تقل قوة وفاعلية عن كثير من الحكومات .. والإرهاب الدولى أصبح أحد العناصر المتحكمة فى السياسة الخارجية لكثير من الدول .. ويجب أيضا ألا ننسى أن الحضارة الغربية قائمة على شعور بالتفوق .. وإسقاط عيوب الغرب على الغير .. ولذلك نجد صورة العالم الإسلامى على أنه قائم على حضارة أساسها النفاق : فالمسلم ليس صريحا ولا واضحا ولا مباشرا .. المسلم محتال كذاب يظهر شيئا ويبطن شيئا آخر .. المسلم لا يؤتمن .. المسلم ليس له عهد ولا وعد .. المسلم ليس له فى الدنيا إلا الطعام والجنس .. المسلم مهمل فى عمله ..كسول .. وليس فى العالم الإسلامى ما يسمونه « الأصالة الحضارية » .. والإسلام لا يصلح لإقامة حياة مدنية ديمقراطية .. الإسلام دين يؤمن بحكم الفرد .. الخليفة أو الحاكم وليس أمام المسلمين إلا السمع والطاعة لولى الأمر مهما يكن فاسدا .. وكل من أراد أن يستخدم عقله ويفكر اتهموه بالكفر .. طه حسين .. على عبد الرازق .. وطابور طويل من المفكرين أرادوا تحرير عقول المسلمين فاتهمهم المسلمون بالكفر .. آخرهم نصر أبو زيد .. !

الإسلام يرفض التجديد .. يرفض التطور ، يرفض التعايش أو التعامل مع الديانات الأخرى ، اتهامات كثيرة .. كثيرة جدا .. كلها قائمة على أكاذيب .. ولكن علماء ومفكرى الغرب يصدقونها ، أو على الأقل يرددونها ، وتتفشى حتى تدخل عقل المواطن الغربى العادى الذى لا يستطيع دراسة الإسلام فيصدقها ويعتبرها حقيقة مفروغا منها ..

وهذه هى المصيبة .. !

* * *

المصيبة أن أفكار الباحثين الذين نظن أنها محصورة فى نطاق ضيق داخل الجامعات ومراكز البحوث لها تأثير كبير فى رسم السياسات فى الغرب ..

نحن عادة نفصل بين الفكر النظرى والسياسات العملية ..

نحن عادة نضع سياسات غير قائمة على فلسفة .. أو على نظرية .. أو على أساس فكرى .. العمل أولا ثم الفكر .. فى الغرب العكس .. الفكر أولا ثم توضع السياسات بناء على هذا الفكر ..

والدليل على ذلك أن ما يقال عن العداء المحتوم بين الإسلام والغرب يتردد صداه فى مواقف كبار القادة وأصحاب القرار فى الغرب ..

مثلا .. ريتشارد نيكسون .. أهم الرؤساء الأمريكيين الذين تميزوا برؤية سياسية واضحة وعقلية مبدعة ..

نيكسون له كتاب مشهور عنوانه « الفرصة السانحة » فيه فصل كامل عن « العالم الإسلامى » يقول فيه : إن كثيرا من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين شعوب غير متحضرة .. وأن المسلمين دمويون ، وغير منطقيين ، ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة ، وأنه مع التزايد السكانى ، والإمكانات المادية الكبيرة ، سوف يشكل المسلمون خطرا كبيرا سوف يضطر الغرب إلى مواجهة هذا الخطر العدوانى للعالم الإسلامى ، ويزيد هذا الرأى بأن الإسلام والغرب متضادان ، وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية ، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب ، وعلى الغرب أن يواجه هذا الخطر الداهم .. !

وبعد أن يسرد نيكسون هذه المخاوف الغربية وأسبابها يطمئن الغرب إلى أن هذا « الكابوس » لن يتحقق ، لأن المسلمين كثرة ولكنهم مختلفون ، ولن يصبحوا كتلة واحدة .. فالمسلمون سدس سكان العالم .. يعيشون فى ٣٧

دولة وينتمون إلى ١٩٠ جنسية .. ويتكلمون مئات اللغات واللهجات .. وهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف : السنة .. والشيعة .. والصوفية .. ويتفرع من هذه الطوائف جماعات وعشرات الطوائف .. ويعيشون فى أرض يبلغ طول أضلاعها عشرة آلاف ميل تمتد من مراكش إلى يوجسلافيا ، ومن تركيا إلى باكستان ، ومن آسيا الوسطى إلى اندونيسيا ، وفى الصين مسلمون أكثر من المسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، وتعداد أندونيسيا وحدها من المسلمين أكبر من تعداد المسلمين فى الشرق الأوسط كله ، وتعداد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق حوالى ٥٠ مليون مسلم ، أكبر من عدد أى دولة إسلامية ماعدا تركيا ..

هذا ما يقوله نيكسون ..ولكى يطمئن الغرب من هذا « الخطر الداهم » يقول أيضا : إن هناك صفتين أساسيتين يشترك فيهما جميع المسلمين فى العالم الإسلامى : إيمانهم بالدين الإسلامى .. وعدم الاستقرار السياسى .. والإسلام ليس مجرد دين ولكنه أساس لحضارة كبرى .. والتنافس بين دول العالم الإسلامى جعله بؤرة للصراعات .. فعلى سبيل المثال – كما يقول نيكسون – فإن المغرب ضد الجزائر .. وليبيا ضد الجزائر .. وليبيا ضد تشاد .. والعالم العربى ضد إسرائيل .. وسوريا ضد الأردن .. وسوريا ضد لبنان .. والعراق ضد سوريا .. والعراق ضد الكويت والسعودية .. والعراق ضد إيران .. وإيران ضد دول الخليج .. وباكستان ضد أفغانستان .. والهند ضد باكستان وبنجلاديش .. وأندونيسيا ضد ماليزيا وغينيا .. وربما يحدث فى كثير من الدول الإسلامية مستقبلا ما حدث فى لبنان .. ! ومع تزايد السكان سوف يهبط مستوى المعيشة ولا تقدر سلطة الدولة على السيطرة على الأمن والاستقرار . وتمثل الموارد الرئيسية – مثل المياه – نقصا شديدا يهدد بمشاكل وربما حروب .. وأغلب خطوط الحدود بين الدول الإسلامية رسمتها قوى الاستعمار الأوربية فى الماضى ، وهى تمثل نقطة رئيسية أخرى للنزاع

بين الدول الإسلامية .. أو بين الدولة والأقليات التى تعيش فيها ..كل هذه الصراعات والمشاكل ظهرت فى المنطقة التى يتجمع بها أكبر كم من السلاح فى دول متخلفة .. لقد أنفقت الدول الإسلامية ٨٪ من دخلها القومى على التسلح فى حين كان إنفاق الدول الغربية أقل من ٥٪ ..

هذا ما يقوله نيكسون .. ويقول أيضا : إن الأمريكيين أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء .. وإن العالم الإسلامى عالم ثورى بطبيعته ، فهو يضم ٦٠٪ من سكان عمرهم أقل من ٢٥ عاما .. وهم فقراء .. فدخلهم القومى – بما فيهم دول البترول يبلغ متوسط دخل الفرد فيه ١٦٠٠ دولار فى السنة بينما متوسط دخل الفرد فى أمريكا ٢١ الف دولار فى السنة .. وزعماء الأصوليين ليس لديهم إلا الرفض ، وليس لديهم تصور للمستقبل ..

يقول نيكسون أيضا : إن مفتاح السياسة الأمريكية هو التعاون مع المسلمين التقدميين .. أما التعاون مع المسلمين المتطرفين والرجعيين فهو تعاون مرحلى ونعمل معهم مادامو فى السلطة ! ..

ويقول نيكسون : أن صديقنا اليوم يمكن أن يكون عدونا غدا ..

ويقول : علينا إن نتقبل فى بعض الأحيان رفض أصدقائنا فى العالم الإسلامى لبعض تصرفاتنا التى تسبب لهم حرجا سياسيا فى بلادهم ، فعندما القت الولايات المتحدة القنابل على ليبيا انتقاما منها لمهاجمتها بعض الجنود الأمريكيين قام كثير من الزعماء فى المنطقة بانتقادنا ولعننا فى العلن ،وبالثناء علينا فى سرهم .. فيجب ألا يزعجنا أن تضطر الظروف أصدقاءنا أن يتفوهوا ببعض السباب ضدنا إرضاء لأعدائنا .. !

ويقول ما هو أكثر .. يقول : إن العالم الإسلامى يشكل أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحدة الخارجية فى القرن الحادى والعشرين ، ومع انتهاء الحرب الباردة بدأت النزاعات التقليدية ، التى كانت نائمة طوال خمسة

وأربعين عاما ، تستيقظ .. ولما كانت منطقة الخليج فيها ٦٥٪ من احتياطى البترول العالمى ، وسوف تظل قابلة للاستغلال ربع قرن قادم فلا مناص من أن نظل مرتبطين بالبترول وبهذه المنطقة ..

ويقول نيكسون : إن أكثر ما يهمنا فى الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيل ..

هل ترون كيف تفكر أمريكا وكيف يفكر الغرب .. ؟

مصالح ..والغطاء الظاهر هو المبادئ ..

المسألة إذن ليست الدين الإسلامى ..

* * *

حتى نيكسون يتحدث أيضا فى كتاب آخر عنوانه « ما بعد السلام » ترجمة المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة عن نظرية هنتنجتون .. ويقول : إنه إذا اساء الغرب معالجة علاقاته مع العالم الإسلامى فإن الصدام بين الحضارات قد يضع الغرب فى مواجهة ضد الإسلام .. ويجب على الولايات المتحدة ألا تسمح لصدام الحضارات بأن يتحول إلى الخاصية السائدة لعصر ما بعد الحرب الباردة .. وكما لاحظ هنتنجتون أن الخطر الحقيقى ليس فى حتمية هذا الصدام ، ولكن فى عدم القيام بأى عمل من جانبنا وهو الذى سيحقق هذه النبوءة ، إذا ما استمر سلوك أمريكا إهمال الصدامات التى يكون المسلمون فيها هم الضحية .. فإننا ندعو بذلك إلى صدام بين العالم الغربى والعالم الإسلامى .. وصدام واحد من هذا النوع يمثل فشلا للسياسة الخارجية الأمريكية هو المذبحة فى يوغسلافيا سابقا .. إن الولايات المتحدة والأمم المتحدة والمجتمع الأوربى ترددت .. وراوغت .. ولم تفعل شيئا لمواجهة المذبحة التى

تعرض لها المسلمون من الصرب .. ولو كان غالبية سكان سراييفو من اليهود أو المسيحيين لما سمح العالم بحصار المدينة ..

ويقول نيكسون ليطمئن الغرب : إن السيناريو المزعج الذى يراه البعض أن الإسلام المتطرف فى طريقه للصدام مع الغرب سيتحقق فقط إذا وصلت القوى المتطرفة إلى السلطة فى العالم الإسلامى ، ولكن معظم مسلمى العالم لا يرقصون على طبول المتطرفين ، والنظم المتطرفة مازالت أقلية وتمثل ١٠٪ فقط من إجمالى سكان العالم الإسلامى .

ويقول أيضا : فى صدام الحضارات توجد حقيقة واضحة .. هى أننا (أى الغرب) الأمة الأقوى والأغنى فى التاريخ ، وهذا ليس كافيا ، والعامل الذى سيكون حاسما هو قوة المبادئ العظيمة ، الدينية والعلمانية ، التى تجعل أمتنا أمة عظيمة ، وعلى الرغم من أن الغرب والمسلمين بينهم خلافات حقيقية فى الثقافة والتطور التاريخى فمن الممكن أن يتعلم كل جانب من الآخر ، وأن ندرس أسباب نجاحنا وفشلنا السابقة .

ثم يقول نيكسون : لقد كان القرن العشرون فترة صدام بين الغرب والعالم الإسلامى ، وإذا ما عملنا معا ، يمكننا أن نجعل القرن الحادى والعشرين ليس فقط قرن سلام فى الشرق الأوسط والخليج ، وإنما أيضا قرنا فيه ما وراء السلام : حضارتان عظيمتان تثريان بعضهما البعض وتثريان العالم .. ليس بالأسلحة والثروات ولكن بالقيم والمثل العليا ..

مثل هذه الأفكار مهمة جدا ..

لأن نيكسون رجل دولة .. عاش فى البيت الأبيض ..صانع سياسات .. وصاحب قرار .. ويمسك بيده مقاليد العالم ..

ولأنه – فوق ذلك – مثقف .. يعرف كثيرا عن النظريات والفلسفات .. فهو ليس مجرد حاكم سياسى .. ولكنه أحد حكماء الغرب ..

فإذا كان يتحدث عن صراع الحضارات وعن هتنجتون وعن حتمية الصراع بين الغرب والإسلام وأسبابه وكيفية تفاديه .. فالمسألة إذن فى منتهى الجدية ..

ولابد أن نشغل أنفسنا بهذا الموضوع ..

وفكرتى الشخصية أن الغرب ينسج نظرية جديدة لكى يحدد العدو الجديد .. بعد انتهاء الاتحاد السوفيتى كعدو .. لابد من وجود عدو لكى يحتفظ الغرب بتماسكه .. وبإرادة القتال والنصر .. ليس أمام الغرب الا الإسلام .. ولحسن حظ الغرب أن الإسلام فى بلاد فيها البترول وإسرائيل .. ولكى يمهد لاستمرار بقائه لا يستطيع أن يقول الحقيقة .. ولكنه يؤلف نظرية تعطيه الفرصة للتدخل فى شئون الدول الإسلامية ، وفى اللعب المكشوف والخفى لإشعال نار الخلافات بين الدول الإسلامية وإشعال الخلافات أيضا داخل كل بلد إسلامى ،والغطاء الفكرى الجاهز الآن لكل ذلك هو نظرية صراع الحضارات وأن الإسلام هو العدو القادم ..

لذلك أقول .. وأكرر .. على العالم الإسلامى أن يتنبه .. احذروا .. !

هناك خطر قادم .. من الخارج ومن الداخل والفاعل واحد ..

فى الظاهر العدو هو الإسلام وفى الباطن الهدف هو السيطرة على الأرض والثروة ..والبداية السيطرة على العقول وعلى الإرادة ..

هناك من ينكر ذلك ويقول أنتم واهمون ترون خيالكم فتشعرون بالخوف ..

لا بأس .. بعضهم طيبون .. وبعضهم له مصالح تربطه بالغرب ويرى فيه مستقبله ..

وبعضهم يحمل فعلا جنسية دولة من دول الغرب ويحمل جواز السفر الخاص بها وحاجز للإقلاع فى أى لحظة بعد أن يجمع كل ما يستطيع ..

أما نحن .. فسنعيش هنا .. وسنموت هنا .. مستقبلنا كله .. ومستقبل أولادنا على هذه الأرض ..

ومن هنا أدركت أهمية الجولات التى يقوم بها شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى فى دول الغرب ..

إن هذه الجولات جهاد فى سبيل الله وسوف تكتب فى ميزان حسناته ..

فهو وحده الذى يستطيع أن يتحدث بلغة يفهمها الغرب وتخاطب عقله ..

وهو وحده الذى يستطيع أن يشرح مبادئ وشريعة الإسلام بسهولة وبساطة ويصل إلى العقول ..

وهو وحده الذى يستطيع أن يواجه النظرية التى تقول : إن الإسلام هو العدو المحتوم للغرب ..

وهو وحده الذى يستطيع أن يصل بمنطقه الهادئ وأدلته المقنعة إلى قطاعات واسعة من المفكرين والباحثين والمثقفين وأهل الرأى فى دول الغرب .. ليشرح لهم أن الإسلام ليس دين إرهاب .. وليس عدوا للديانات أو الحضارات الأخرى .. وأنه دين يدعو إلى تعاون البشر جميعا .. لأنهم جميعا من أب واحد وأم واحدة .. وأن مسائل العقيدة وأيها صواب فإن الذى يحكم فى ذلك هو الله وحده .. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ..

والموضوع كبير .. ومهم .. ويستحق أن أعود إليه ..لمن يهمه الأمر ..

أهداف سياسية .. وليست دينية !

أختلف مع الذين يقولون : إن ميراث العداوة الذى يحمله الغرب للإسلام منذ الحروب الصليبية حتى اليوم يرجع إلى أسباب دينية .. أو إنه تعبير عن صراع الديانات .. أو صراع الحضارات .. وأرى أن القضية كلها سياسية .. العداء سياسى .. والكراهية لأسباب سياسية .. والمخاوف سياسية .. وإن ظهرت فى ثوب دينى .. !

تخوف الغرب من الإسلام والمسلمين حقيقة مؤثرة هناك .. والمسلمون لا يأخذون المسألة مأخذ الجد ، يتصورون أنها ليست إلا تعبيرا عن أفكار شاذة لبعض مفكرين غربيين يبحثون عن موضوع يشغلون به الناس ..

ليس فى المسلمين من يفسر سلوك القادة السياسيين والكتاب والمفكرين فى الغرب ، على أنه تعبير عن هذه الفكرة المسيطرة على الغرب ، وهى أن الإسلام هو الخطر الوحيد على الغرب وعلى الحضارة الغربية ، وأن المسلمين يريدون السيطرة على العالم الغربى ليقضوا على تقدمه العلمى ويعيدوه إلى عصور الجهل والتخلف والظلام ، وأن كل ما وصل إليه الغرب من تقدم فى علوم الكمبيوتر والليزر والهندسة الوراثية والمواد الجديدة وتكنولوجيا الفضاء والذكاء الاصطناعى ، مهدد بالزوال إذا ساد الإسلام العالم ليحل محلها الإيمان بالسحر والخرافات والأحلام ، وسوف تطوى مرحلة الحياة الإنسانية المليئة بالعمل والإنتاج لتحل محلها مرحلة مليئة بالجنس والنفاق .. ويعود العالم كله إلى حكم هارون الرشيد والف ليلة وليلة والندماء والجوارى .. !

هذه الأفكار الغريبة ليست منتشرة بين الجهلاء وعامة الناس فى الغرب .. بل إنها منتشرة – مع الأسف – بين المثقفين .. وما كان يقال منذ

ثلاثة أو أربعة قرون مازال مؤثرا فى العقل الغربى إلى اليوم .. وهى فى الأصل ذات أهداف سياسية ولكنها تكتسب كل يوم قوة دينية وتمتد لها جذور عقائدية .. وهذا هو الخطر ..

* * *

منذ مائة عام ، وبالتحديد فى عام ١٨٩٦ صدر كتاب من تأليف مفكر فرنسى مشهور هو الكونت « هنرى دى كاسترو » يقول فيه : « إن جميع أغانينا التى ظهرت قبل القرن الثانى عشر صدرت عن فكر واحد ، كان المحرض على الحروب الصليبية ، وكلها محشوة بالحقد على المسلمين ، للجهل بديانتهم ، ولايزال بعضها راسخا إلى هذه الأيام .. وكذلك المؤرخون مؤلفاتهم مملوءة بالطعن فى نبى المسلمين .. » ولأهمية هذا الكتاب ترجمه أحمد فتحى زغلول باشا شقيق الزعيم سعد زغلول ..

وحتى الآن كلما أجلس مع بعض الرجال المسيحيين ينتهى حديث المجاملات إلى سؤال مثل : أليس الإسلام دينا يبيح الرق ، ويسمح للإنسان أن يمتلك إنسانا آخر ويبيعه أيضا ، وإن كانت فتاة فهى ملك يمينه .. ؟

طبعا لا تستطيع أن تجيب عن السؤال بأن تقول له : إن أمريكا كان فيها أحياء للسود وكانوا إلى عهد قريب جدا يعاملون معاملة الكلاب .. ! أو أن تقول له : إن الاستعمار الغربى فى أفريقيا كان يبيع الأفارقة فى الأسواق ، وكذلك لا تستطيع أن تشرح له وضع الرق فى إطاره التاريخى .. كأن تقول له : إن الرق كان نظاما سائدا فى العالم كله منذ ١٤٠٠ عام .. وفى أوربا كان أسرى الحرب يؤخذون أرقاء .. وكان الأوربيون يخطفون أبناء أفريقيا وينقلونهم بالسفن إلى أمريكا وأوربا للبيع ، وكان المدين المعسر إذا لم يستطع

أن يسدد دينه يتحول إلى رقيق لدائنه ، وكان الرق مفروضا كعقوبة على من يرتكب جرائم معينة ، ولا تستطيع أن تقول له : أن التوراة تقول فى العهد القديم فى الإصحاح العشرين : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد .. » .. ولا تستطيع أن تقول له : اقرأ وصايا بولس الرسول فى الإنجيل ويأمر فيها العبيد بإطاعة أسيادهم كما يطيعون السيد المسيح .. وقوله إلى أهل افسوس : « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة ، فى بساطة قلوبكم كما للمسيح .. » أو تقول له : اقرأ وصايا بطرس الرسول .. أو قل لى : هل كان يمكن أن تقوم الحضارة اليونانية أو الرومانية بغير العبيد الذين كانوا يمثلون أدوات الانتاج فى تلك العصور ؟

ولكنك تستطيع أن تقول له : إن الإسلام هو الدين الذى وضع نظاما للقضاء على الرق .. بدأ بإلغاء كل أنواع الاسترقاق إلا حالة واحدة هى حالة أسرى الحرب .. أما الصور الأخرى التى كانت سائدة فى أوربا فقد حرمها .. منع الإسلام الاسترقاق نتيجة الخطف والإغارة .. أو وفاء لدين .. أو لعقوبة على جريمة .. أو بيع الإنسان نفسه لفقره .. وليست كل الحروب .. بل حرب واحدة : إذا كانت حربا دفاعية .. وكانت دفاعا عن الدين أو الوطن .. أما الحرب الهجومية العدوانية فلا يحل استرقاق أسراها ..

هذا التعديل – كما قال أستاذنا الدكتور عبد المنعم النمر ضيق منبع الرق .. ثم جاءت الخطوة الثانية وهى إظهار كراهة الإسلام للرق بدليل أنك لا تجد نصا فى القرآن أو السنة يأمر بالاسترقاق أو يستحسنه .. بل إن الآية التى حددت كيفية التصرف فى أسرى الحرب حددت سبيلين : المن أو الفداء .. ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .. (أى قيدوا الأسرى)

ثم جاءت الخطوة الثالثة بدفع المسلمين إلى تحرير الرقيق .. اقتحام العقبة التى تحول بين المسلم والجنة يكون بعتق رقبة .. والقتل الخطأ لمؤمن أو ذمى أو معاهد فالكفارة عتق رقبة : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ .. وكفارة الحنث باليمين عتق رقبة .. وكفارة الذين يظاهرون من نسائهم عتق رقبة كأن يقول الرجل لزوجته « أنت محرمة على كأمى أو أختى » .. وإذا قال الرجل لعبده وهو يمزح : أنت حر فقد أصبح حرا .. وإذا ضرب الرجل عبده فإن عقابه شديد عند الله ولا يكفر عنه إلا أن يعتقه .. وأحد مصارف الزكاة .. عتق الرقاب .. وهكذا توسع فى العتق حتى انتهى نظام الرق الذى كان مستحكما فى العالم كله ..

كان نظام الرق فى الإسلام مساويا لنظام الرق فى كل النظم التى كانت سائدة فى العالم .. ولكنه امتاز بأن ضيّق مصادر الرق فى حالة واحدة هى الحرب الدفاعية وتوسع فى العتق .. لماذا أبقى الإسلام على الرق .. لأنه كان نوعا من المعاملة بالمثل .. لأن المسلمين إذا انهزموا كان الآخرون يأخذونهم رقيقا أيضا ..

الرق كان نظاما مستقرا فى أوربا حتى زمن قريب .. ولكنهم عادة لا يذكرون ذلك .. مع أن الكتب والروايات والقصص مليئة ..

ولكنه موقف من الإسلام بالذات يريد أن يجمع أى اتهام ويلصقه به وحده ..

* * *

وتقول لمن يسألك هذا السؤال الخبيث : إن موقف الإسلام من أسرى الحرب لا يختلف عن موقف القانون الدولى فى العصر الحديث ..

هذه قضية يكررها كل من يقابلك فى الغرب إذا عرف أنك مسلم .. وربما يكون معذورا لأنه يقرأ لعلماء ومؤرخين معروفين سخروا علمهم لترويج الأكاذيب للاساءة إلى الإسلام ..

وما أكثر الكتب والدراسات المليئة بالأكاذيب عن الإسلام والخصومة له ..

* * *

ويقولون لك : إن الإسلام يفرض الجزية على غير المسلمين الذين يعيشون فى بلد مسلم .. ؟

ولا تستطيع أن تقول له : إن الجزية كانت نظاما معمولا به عند اليونان والرومان والفرس .. وأول من فرضها كان كسرى ملك الفرس وفرضها على البلاد العربية الواقعة تحت حكمه فى شرق الجزيرة العربية فنقلها العرب .. وفى الإسلام – كما يقول الشيخ رشيد رضا – أمر بالقتال فى حالة واحدة هى وقوع اعتداء أو اضطهاد على المسلمين أو تهديد لأمنهم وسلامتهم كما فعل الروم وكان سببا فى غزوة تبوك . فالقتال فى الإسلام للدفاع ليس للعدوان ، وحين ينتصر المسلمون ويدخلون بلدا فإنهم يأخذون من أهله الجزية ضريبة مقابل حمايتهم وتوفير الحماية والأمن لهم .. ولم يحدد القرآن مقدار الجزية .. ولم تكن تفرض على أشخاص ، ولكن تفرض على القرية كلها أو المدينة ويتولى حاكمها توزيعها على القادرين .. والذى نظمها هو عمر بن الخطاب وحددها على أساس الحالة المالية لأفرادها .. ولا تفرض إلا على الذكور البالغين الأصحاء القادرين على دفعها .. ولا يدفعها الشيوخ ولا النساء ولا أصحاب العاهات .

والجزية هى « ضريبة الدفاع » كما يقول شيخنا الدكتور عبد المنعم النمر .

وكل من كان يقدم عونا للمسلمين من أى نوع يعفى من الجزية .. وفى العصر الحديث ليس هناك حالة واحدة فى العالم تنطبق عليها الجزية .. ليست هناك حروب يتولى المسلمون بعدها حماية من انهزم فيها .. وغير المسلمين فى العالم الإسلامى هم مواطنون يشاركون فى الجيش وفى المجهود الحربى ويقدمون دماءهم فداء لأوطانهم .. فكيف تنطبق عليهم شروط الجزية ؟

كل هذه قضايا تُطرح طرحا مغلوطا .. وهذا مقصود .. وعن عمد .. وليس بحسن نية .

لأن كل من كان حسن النية من مفكرى الغرب قال كلمة الحق .. فهذا « ول ديورانت » أكبر مؤرخ فى العصر الحديث يقول فى كتابه الكبير : « قصة الحضارة » : « إن أهل الذمة من المسيحيين والزرادشتيين واليهود والصابئين كانوا يستمتعون بدرجة من التسامح فى عهد الخلافة الإسلامية لانجد له نظيرا فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام .. كانوا أحرارا فى ممارسة شعائرهم الدينية ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم .. وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية أحرارا ، وهم – الذين كانوا يلاقون منها الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم والإسكندرية ، وأنطاكيا – وأصبحوا آمنين تحت حكم المسلمين ، بل إن والى أنطاكيا المسلم عين حارسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية من أن يقتل بعضها بعضا » .

ويقول ديورانت أيضا : « كان المسلمون مثالا للرقة والإنسانية والتسامح ، وكان المسيحيون يحتلون أرقى المناصب فى الدولة الإسلامية ، بينما نجد النورمان عندما فتحوا صقلية سنة ١٠٦٠ – ١٠٩١ كانوا يفخرون بأنهم سووا الأرض بالمدائن والقصور العربية التى أقامها المسلمون بأرقى الفنون » ! .

وهناك كتاب معروف للمستشرقين الغربيين جميعا ولكنهم يخفونه ولا يشيرون إليه ، لأن مؤلف الكتاب ، توماس أرنولد يقول الحق ويسرد وقائع تدل على سماحة الإسلام والمسلمين .. الكتاب بعنوان « الدعوة » ويذكر فيه قصة كتبها القسيس الخاص للويس السابع وكان يصحبه فى حملته على بيت المقدس ، فيذكر القسيس ما أصاب جيشهم من كوارث على يد المسيحيين الاغريق ، ثم يذكر موقف المسلمين بعد أن هزموهم فواسوا مرضى الحملة الصليبية المهزومين ، وأطعموا الجائع ، فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التى لقيها المسيحيون الغزاة من « الكفار » يقصد المسلمين ! وبين القسوة التى عاملهم بها إخوانهم المسيحيون من الإغريق !

ويقول توماس أرنولد : إن المسلمين حين دخلوا اسبانيا وجدوا أهلها يعانون من ظلم الكنيسة الكاثوليكية ، وكان اليهود والمسيحيون من المذاهب الأخرى يقاسون الويل مما جعلهم يرحبون بالحكم الإسلامى لأنهم وجدوا فيه العدل والتسامح فلم يتعرض المسلمون للمسيحيين فى أدائهم لشعائرهم ، بل قربوا كثيرا منهم إلى بلاطهم .

من ناحية أخرى يصف ول ديورانت وحشية الحروب الصليبية « بعد حصار دام أكثر من شهر استولت قوة بقيادة جود فرى على مدينة القدس وكانت المذبحة رهيبة وكان دم المسلمين يجرى فى الشوارع » ..

ومع ذلك فقليل هم المنصفون للإسلام والمسلمين فى الغرب .

لماذا العداء فى الغرب للإسلام والمسلمين ؟

هناك تفسير لأستاذنا الراحل أحمد أمين فى كتابه المشهور « يوم الإسلام » يقول : إن مستر جلادستون كان يعلن وجوب إعدام القرآن وتطهير أوروبا من المسلمين ، وزعيم حزب الأحرار البريطانى المشهور « جلاد ستون » الذى توفى عام ١٨٩٨ . واللورد سالسبرى من زعماء بريطانيا فى القرن الماضى

وغيرهم أعلنوا العداء للإسلام والمسلمين .. والسبب أن الغرب أخذ أصول ثقافته من الثقافة اليونانية .. وكانت الفكرة اليونانية الأساسية هى تقسيم العالم إلى يونانيين وبرابرة ، فاعتقد الغربيون أيضا أن العالم ينقسم إلى سادة أوربيين وعبيد من العالم الآخر .

ويذكر شيخنا الدكتور عبد المنعم النمر لحظة أن دخل القائد الانجليزى اللورد اللنبى القدس فى الحرب العالمية الأولى بعد انتصاره على العثمانيين فقال بصوت عال : « الآن انتهت الحروب الصليبية » وأراد بذلك أن يقول : إن استيلاء الغرب على بيت المقدس هو الانتقام من صلاح الدين الذى طرد الصليبيين ..

هل معقول أن الحروب الصليبية كانت – إلى هذا الحد – تعبيرا عن دوافع عميقة فى الغرب .. ؟

دائرة المعارف البريطانية ذاتها تعترف بأن المشرق العربى الإسلامى – وقت الحروب الصليبية – لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين .. قبل أن تداهمه أوربا بهذه الحروب وتنكيلها الوحشى بالمسلمين واليهود وأحيانا بالمسيحيين العرب !

ودائرة المعارف البريطانية لم تستطع أن تنكر أن أوربا أخذت من العالم الإسلامى العلوم والصناعات المتقدمة والفنون التى كانت تجهلها ولم تقدم أوربا للشرق العربى الإسلامى أى شىء له قيمة حضارية .. لأن أوربا لم يكن لديها فى ذلك العصر ما تقدمه .. وقد دهش الصليبيون الذين جاءوا من أوربا وهم معتقدون أن المسلمين برابرة ، فوجدوا لديهم كل هذه المظاهر للحضارة والتقدم والنظم التى لاتعرفها أوربا !

لكل من يسألنى : لماذا ينطوى الاسلام على العدوان ؟ .. ولماذا المسلمون لديهم نوايا وسلوك عدوانى أقول : إن المسلمين كانوا على مر التاريخ ضحايا

عدوان من أوربا .. فى عام ١٠٨٥ جاءت أوربا لهزيمة المسلمين فى الأندلس .. وفى عام ١٠٨٧ احتل الإيطاليون مدينة « المهدية » فى تونس .. وفى عام ١٠٩١ قام الأوربيون بطرد المسلمين العرب من جزيرة صقلية .. وبدأت أول حملة صليبية لغزو العالم الإسلامى فى عام ١٠٩٥ ، وبلغ عدد الحروب الأوربية الصليبية للعالم العربى الإسلامى ٨ حملات .. وكانوا غاية فى القسوة والوحشية فى معاملة المسلمين حين هزموهم .. أما حين انتصر صلاح الدين على الصليبيين فقد عامل المسيحيين واليهود بسماحة وترحاب ..

فى الغرب الآن جامعات وأساتذة ومفكرون ومثقفون رسالتهم فى الحياة أن ينشروا بكل طريقة فكرة أن المسلمين متعصبون .. وأن الإسلام ينطوى على كراهية الآخر .. ويحرض على العدوان على غير المسلمين ..

بينما لا يقول أهل الغرب شيئا عن تعصب اليهود .. ولا يذكرون مثلا أن الحاخام الأكبر فى إسرائيل منع زواج بنت رئيس الوزراء بن جوريون من ضابط يهودى لأن أمها كانت مسيحية واعتنقت اليهودية ! وقدم بن جوريون (وهو رئيس الوزراء) شهادات تثبت أن زوجته كانت يهودية صالحة منذ زواجه بها فى بريطانيا واستمرت مخلصة لليهودية طول حياتها ، ولكن الحاخام لم يعترف بذلك ، ولم يجد بن جوريون وزوجته وابنته بدا من أن تقدم زوجته طلبا جديدا إلى الحاخام الأكبر لاعتناق اليهودية لينظر فى قبوله أو رفضه !

ويقولون : إن المتعصبين هم المسلمون !

ويقولون : الإسلام دين رجعية وجمود وتوقف عند مرحلة نشأته الأولى لا يغادرها ولا يساير تطور الزمن .

ونقول : إن المسلمين أضافوا الكثير لعلوم الطبيعة والكيمياء والطب

والفلك والرياضة ، وإن الغرب أقام نهضته وخرج من عصور الظلام بفضل نقل العلم والحضارة والفكر عن العرب .

ولكن أكثرهم لا يحب أن يستمع إلى هذه الحقائق ..

الحاخام الأكبر فى إسرائيل أصدر منذ أكثر من عشر سنوات فتوى تقول إن كل يهودى يقبل إخلاء أرض يسيطر عليها اليهود يعتبر كافرا ..

ويقولون : إن المسلمين هم المتعصبون !

وتقول إحدى الأساطير اليهودية القديمة إن السيف والتوراة نزلا من السماء معا ملفوفين فى لفافة واحدة .. وتقول إحدى الصلوات اليهودية : « فلتحل البركة على إله القوة الذى يدرب يدىَّ على الحرب وأصابعى على القتال » .

ويقولون أن الإسلام دين عدوان ! شىء لا يصدقه عقل ..

أكاذيب .. وتلفيق .. وتزوير الحقائق .. وقلب وقائع التاريخ .. كل ذلك لكى يجدوا الأساس الفكرى والعقائدى لكراهية الإسلام والمسلمين ..

وأغرب ما يقال : إن المسلمين يعادون السامية ويكرهون اليهود واليهودية ..

مع أن العرب ساميون فكيف يعادون السامية .. واليهودية دين منزل من عند الله ، والمسلم الذى لا يؤمن بذلك لا يعتبر مسلما ، وقد أمر الله بذلك ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله .. ﴾

فإذا كان قرآن ربنا يؤكد أن الرسول آمن بالديانات السابقة .. وأن المسلم الحق لا يفرق بين أحد من الرسل .. فكيف يقولون : إن الإسلام دين تعصب

وكراهية للأديان الأخرى .. والأديان الأخرى جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم .. إذا أنكرها أصبح إسلامه ناقصا ؟

ولوزير الأوقاف الدكتور محمود حمدى زقزوق ثلاثة كتب مهمة عن الإسلام والغرب .. بحكم احتكاكه بالغرب عندما كان يدرس للدكتوراه فى المانيا .. ثم عاد إلى الغرب أستاذا محاضرا ودارسا للفكر الغربى ..

وهو ينقل فى كتابه « الإسلام فى مرآة الفكر الغربى » عن عميد المستشرقين الألمان البروفيسور فريتس اشتبات قوله : إننا نشهد .. فى الوقت الحاضر إعادة نشأة صورة العدو المتمثلة فى الإسلام .. وهناك خبراء مزعومون فى وسائل الإعلام يتحدثون عن الحركات الإسلامية على أنها تثير الكراهية ضد الغرب ، وتهدد العالم غير الإسلامى بعاصفة تتارية جديدة ، وينظر أحيانا إلى المسلمين الذين يعيشون بيننا (فى المانيا) على أنهم يمثلون « الطابور الخامس » .. وهذه الأحكام تمثل من جانبنا عقبة أمام التعايش السلمى مع المسلمين فى بلادنا ومع جيراننا ، وتثير الكراهية .

والدكتور زقزوق – الأستاذ الجامعى قبل أن يكون وزير الأوقاف – يقول فى كتابه : إن وسائل الإعلام الغربية مستمرة فى خطتها لتشويه صورة الإسلام ، وتصويره بأنه دين عدوانى ، معاد لحقوق الإنسان ، والديمقراطية ، والعلم ، والحضارة ، حتى أصبح مصطلح « الخطر الإسلامى » الذى يهدد الحضارة الغربية من المصطلحات السائدة فى الغرب ، وأصبح الإسلام لدى ساسة الغرب هو البديل بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتى .

والدكتور زقزوق معه حق ، لأن مفكرا أمريكيا مثل فرانسيس فوكوياما يقول فى كتابه « نهاية التاريخ » : إن الإسلام يشكل ايديولوجية متسقة ومتماسكة مثل الليبرالية والشيوعية .. وله معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية ، كذلك فإن الإسلام له جاذبية

يمكن أن تكون عالمية ، وهو يدعو إليه البشر كافة ، وقد تمكن الإسلام من الانتصار على الليبرالية فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى ، وأصبح خطرا كبيرا على الممارسات الليبرالية ، وظهر ذلك بعد نهاية الحرب الباردة فورا فى تحدى العراق الغرب ، وقيل : إن الإسلام كان أحد عناصر هذا التحدى !

هذا ما يقوله فوكوياما فى كتابه الذى لم يقرأه المسلمون .. « نهاية التاريخ » .

وقال فيه أيضا : إنه مع القوة التى أبداها الإسلام فى صحوته الحالية فليست له جاذبية خارج المناطق التى كانت إسلامية فى الأصل ، وهذا يعنى أن زمن التوسع الإسلامى قد ولّى ، وإن كان الإسلام قادرا على استعادة الخارجين عليه إلا أنه لا يصادف هوى فى قلوب الشباب فى برلين أو طوكيو أو موسكو ، ورغم أن خُمس تعداد سكان العالم مسلمون ، فليس بوسعهم تحدى الديمقراطية الليبرالية فى أرضها ، بل إن العالم الإسلامى هو الأكثر تعرضا للتأثر بالأفكار الليبرالية ، ولاشك أن أحد أسباب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوة الخطر الذى تشعر به المجتمعات الإسلامية التقليدية من القيم الغربية الليبرالية .

وهو يقول أيضا : إن الاقطار الإسلامية لم تحقق نجاحا سياسيا أو اقتصاديا . كما كان يأمل دعاة الإصلاح فى القرن ١٩ و٢٠ وظلت المجتمعات الإسلامية تابعة للاستعمار الغربى خلال الحرب العالمية الثانية ، كما تحطم مشروع الوحدة العربية بعد هزيمة مصر عام ١٩٦٧ ، وكان قد سبق خلال المائة عام الماضية هزيمة القيم (الإسلامية) العفنة المتهاونة ، ونرى تشابها بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوربية ، ولا يمكن إدراك قوة الإحياء الإسلامى إلا إذا أدركنا عمق الجرح الذى أصاب كبرياء المجتمع الإسلامى بسبب

فشله المزدوج فى الحفاظ على تماسك المجتمع الإسلامى التقليدى ، والتمكن من القيم والتكنولوجيا الغربية ؟

هكذا يعلن فيلسوف الغرب الجديد فرانسيس فوكوياما أن الإسلام يحمل نفس القيم الفاشية .. وأن الإسلام له جاذبية واسعة فى أرضه فقط ، ولكنه لا يجذب عقول الغربيين .. وأن الإسلام هو السبب فى تخلف المسلمين .. وأنه وراء فشل المسلمين فى التفوق علميا أو اقتصاديا أو صناعيا .. وإنه لم يبق للإسلام والمسلمين إلا استخدام أسلحة الفاشلين وهى العنف ، وقد يكون التعبير عنها بتوجيه هذا العنف إلى مظاهر التقدم والتفوق فى الغرب .

كلام فارغ .. ! ولكنه يجد من يصدقه ويستجيب له ..

وأخطر من ذلك أن هذه الأفكار تؤثر فى القادة والمؤسسات الغربية وتؤثر فى السياسات والقرارات .

وإذن فالتخوف من الإسلام ليس أمرا عارضا أو عابرا فى الغرب ..

وما دام الغرب يرى أن الإسلام خطر عليه فلابد أنه سيخطط ويعمل على ضرب الإسلام وأهله ضربات إجهاض مبكرة .. ولن ينتظر إلى أن تظهر قوة العالم الإسلامى .

والمهم فى الموضوع أن القضية ليست قضية فكرية أو دينية .. ليس الموضوع الإسلام كدين فى مواجهة دين آخر مثل المسيحية أو اليهودية .. ولكن القضية ذات بعد سياسى فى المقام الأول .. والكلام عن العقيدة ليس إلا وسيلة لإثارة الكراهية والمخاوف من الإسلام .

* * *

وكل فكر معاد للإسلام فى الغرب هو مقدمة للسياسة وليس العكس .

ووزير الأوقاف الدكتور زقزوق يقول لنا بعد دراسة موقف الفكر الغربى

من الإسلام استغرقت أكثر من ثلاثين عاما : إن الصورة السلبية السائدة اليوم عن الإسلام فى الغرب ليست صورة وقتية عارضة ، وإنما هى صورة قديمة صاغتها قرون طويلة من الصراع الحضارى بين الإسلام والغرب ، وإن الغرب يسعى إلى تعميق عقدة التخلف ومركبات النقص فى ذهن المسلمين ، والمستشرقون يختارون من التاريخ الإسلامى مواقف الضعف وفترات الانحلال ، ويختارون من الأحاديث النبوية الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات ، ويختارون من بين التفسيرات الكثيرة للنصوص التفسيرات المتأخرة المليئة بالخرافات .. والدكتور زقزوق يشير إلى كتاب المستشرق الألمانى المشهور اشتيجليكر وكتابه « عقائد الإسلام » وكيف وقف عند حديث يقول : « أتانى جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلا فى الجماع » ليتحدث طويلا عن القوة الجنسية عند الرسول ، والدكتور زقزوق يقدم الأدلة العلمية على أن هذا الحديث مكذوب وموضوع ، ويضيف الدكتور زقزوق أن المستشرق الألمانى الكبير يذكر حديثا للرسول يقول : « إنما حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء » ولا يشير إطلاقا إلى تكملة هذا الحديث ، وهى قوله ﷺ : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .. فالمستشرق الكبير يريد فقط أن يظهر نبى الإسلام لقرائه الأوروبيين على إنه شخصية شغوفة بأمور الدنيا ومتاعها ، وإن الروحانيات لم تكن تلعب فى نفس محمد إلا دورا ثانويا .. بل إن هذا المفكر الألمانى يعرض عرضا كاريكاتيريا قصة زواج الرسول ﷺ بالسيدة عائشة عندما كانت طفلة فيقول : إن النبى تزوجها وعمرها ست سنين ، ويضيف أن الرسول كان يغير فى القرآن لإرضاء أهل قريش ! وأكثر من ذلك يخصص المفكر الألمانى فصلا فى كتابه بعنوان « هل كان محمد قاسيا وخائنا ؟ » وقال فيه « لقد وجهت إلى محمد باستمرار اتهامات عظيمة تتمثل فى أنه فى سبيل الانتصار لدعوته قام بمعاملة خصومه بقسوة ووحشية لا ترعى شيئا ، ولم يثنه عن ذلك خشيته من نقضه للعهود والأيمان ،

وفى النهاية جعل معارضيه يُجبرون على الدخول فى دينه عن طريق حرب لا إنسانية » ! ويقول أيضا إن انتشار الإسلام فى آسيا وافريقيا كان بسبب جيوش المسلمين الزاحفة التى كانت تنشر الخوف والفزع والرعب فى كل مكان ! ومع أنه ألمانى ويكتب باللغة الألمانية للشعب الألمانى إلا أنه أعطى نفسه الحق فى الحديث عن لغة القرآن ليقول : إن لغة القرآن لغة عادية لاتزيد عما فى كتب الأدب !

ثم إن هذا المستشرق يجهد نفسه فى البحث فى كتب مجهولة ومشكوك فيها بحثا عن كل ما هو غريب وشاذ من الأحاديث والأخبار والأقوال التى ثبت للباحثين منذ قرون عدم صحتها ، ولكنه يحرص على إحياء كل مادسه اليهود فى التراث الإسلامى ، حتى أن الدكتور زقزوق يعلق على بحث هذا المستشرق : إنه قد يكون أقل من غيره من المستشرقين تعصبا وتحيزا ضد الإسلام ، ولكنه لم يحقق وعوده فى مقدمة الكتاب بأن يكون موضوعيا ، واختار المراجع المشكوك فيها والضعيفة ، وترك المراجع المعتمدة الأصلية رغم إنه يعرفها جيدا ، وهو متخصص فى الدراسات الإسلامية لأكثر من ثلاثين عاما .. وهو ينطبق عليه ما كان يقول مكسيم رودنسون – المستشرق الفرنسى – من أن المستشرقين لم يروا فى الشرق إلا ما يريدون رؤيته ، واهتموا بالأشياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوربا ، وكانوا يكرهون النهضة فى الشرق » .. هذا ما قاله المستشرق الفرنسى عن المستشرقين الغربيين .. قال ذلك فى محاضرة القاها فى عام ١٩٦٩ بالقاهرة بعنوان « رؤية أوربا للعالم الإسلامى » .

هذا ما قاله .. مستشرق عن المستشرقين .. فماذا نقول نحن ؟ !

* * *

كتاب آخر يعرضه لنا الدكتور حمدى زقزوق بعنوان « محمد والقرآن » ومؤلفه هو المستشرق الألمانى رودى بارت الذى كان يعمل أستاذا لعلوم الاستشراق فى جامعة توبنجن بالمانيا الغربية ، وله ترجمة المانية للقرآن ، وله مؤلفات عن الثقافة الإسلامية وصلة الإسلام بالثقافة اليونانية ، ومحور الكتاب هو الادعاء بأن الإسلام أخذ الكثير من اليهودية والمسيحية ، وهو يسمى المدينة المنورة بمدينة اليهود ! وهو ينكر - بشكل مباشر أن يكون القرآن من عند الله ، ويؤكد أن العبادات فى الإسلام بما فيها الصلاة مأخوذة من المسيحية واليهودية حيث كان النموذج المسيحى واليهودى فى الصلاة المشتمل على الركوع والسجود وقراءة نصوص مقدسة ، معروفا لدى العرب ..

ويقول الدكتور زقزوق : إنه سمع محاضرة فى جامعة ميونخ فى أواسط الستينات القاها المستشرق المعروف الدكتور كيسلنج على الطلبة ، أكد فيها أن الإسلام أخذ من اليهودية والمسيحية وتساءل : إذا كان محمد قد أخذ دينه عن اليهودية والمسيحية فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث المسيحية التى تعتبر الأساس الراسخ فى العقيدة المسيحية ؟ إما أنه لم يستطع فهمها ، وإما أن بحيرى الراهب الذى كان يشرح المسيحية لمحمد لم يكن هو نفسه يفهمها ؟ !

لا أستطيع أن ألخص الآن ما فى الكتاب المهم الذى قدم فيه الدكتور زقزوق « الإسلام فى مرآة الفكر الغربى » ولكنى اكتفى بالوصول إلى حقائق لابد أن نضعها أمامنا :

الحقيقة الأولى : أن الإسلام له أعداء .. طبعا له أعداء فى العقيدة ولكن هؤلاء مؤمنون بالله ، ويمكنهم التعايش مع كل من يؤمن بالله مهما يكن مخالفا لهم فى العقيدة . فالمسيحية فى ذاتها ليست عدوا للإسلام فى ذاته . والإسلام أيضا ليس عدوا للدين المسيحى أو الدين اليهودى . بل العكس ، فالمسلم مأمور من الله بأن يؤمن بكل الأنبياء والرسل ، وبكل الكتب والديانات

السماوية ، وبألا يفرق بين أحد من رسله .. ومن هذه الزاوية لا يمكن أن تكون اختلافات العقائد سببا للعداء .

والحقيقة الثانية : أن الغرب له مواقف سياسية قديمة وحديثة من هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم التى يسكنها المسلمون .. والاستعمار الغربى له فيها تاريخ طويل .. والمصالح الاستعمارية والتوسعية والهيمنة الاقتصادية الغربية .. كل ذلك مازال قائما لا يمكن إنكاره .. ولا يستطيع الغرب أن يعلن عن أطماعه صراحة ، ولذلك يلجأ إلى إعلان أسباب غير حقيقية لتكون هى الستار الظاهر .. فيوجه العداوة إلى الإسلام ذاته .. ويركز على ظواهر سلبية فى المجتمعات الإسلامية وينسبها إلى العقيدة الإسلامية .. ففى أمريكا عصابات تقتل وتسرق فى الشوارع والمدن الكبرى ومع ذلك لا يقول أحد : إن هذه هى الأصولية المسيحية .. وفى أمريكا فرق شاذة لها عقائد دينية تشوه المسيحية وتدعو إلى الجرائم أو إلى الانتحار الجماعى أو الفردى ، أو تدعو إلى قتل المخالفين لها ، أو إلى الجنس الجماعى ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إن هذه الجماعات تعبر عن الأصولية المسيحية .. فلماذا إذا ظهرت فى العالم الإسلامى جماعات إجرام ترتكب جرائم القتل والسرقة ولها سلوك شاذ يتفق أهل الغرب جميعا على أن هذه الجماعات هى المعبرة عن روح وعقيدة وحقيقة الإسلام !

قد يكون هناك خطأ غير مقصود من البعض .

ولكن انتشار الخطأ وتكراره .. ووصوله إلى المفكرين واساتذة الجامعات ورجال الإعلام والقادة السياسيين لابد أن يلفت النظر .

لذلك أقول : إن موضوع صورة الإسلام فى الغرب يحتاج إلى وقفة .. وقفة من رجال الفكر والدين أولا .. ومن الدول الإسلامية ثانيا .. ومن المؤسسات والمنظمات والجامعات فى الدول الإسلامية ثالثا .. ولابد من عمل

منظم .. يعتمد على العلم والعقل .. ويتعقب بصبر شديد كل ما يكتب وما يقال ويتولى الرد عليه بالتفصيل .

وأقول لابد أن يقوم القادرون على شرح حقائق الإسلام بجولات فى كل أنحاء الغرب ليواجهوا هذه الحملة الضارية ..

ولابد من مؤسسة علمية قوية تتولى ترجمة الكتب الإسلامية الأصلية إلى كل اللغات بدلا من ترك هذه المهمة للمستشرقين الذين يختارون أسوأ كتب التراث التى تسىء إلى الإسلام ولا تشرح حقائقه .

وأقول : إن الأزهر الشريف عليه مسئولية كبرى لابد أن يقوم بها ..

وهذا يقتضى إعادة بناء الأزهر من جديد ..

وما يقوم به فضيلة الإمام الأكبر من جولات لتوضيح حقائق الإسلام هو فى ذاته عمل كبير جدا .

ولابد أن تتنبه وزارة التعليم إلى هذه القضية وتحصن أبناءنا منذ البداية وتبصرهم بالفخ المنصوب للإسلام والمسلمين وحملة التشويه الضارية فى الغرب .. واعتقد أن الدكتور حسين كامل بهاء الدين سيكون أول من يقدر هذه المعركة .

وهذا موضوع آخر .

جذور .. وأصول .. !

لم أكن أظن أن العداوة فى الغرب للإسلام يمكن أن تصل إلى هذا الحد .. وحين كنت أقرأ ما يكتب حول هذا الموضوع كنت أعتقد أنها أوهام ، أو تعبير عن عقدة نفسية من جانب المسلمين لأنهم يشعرون بأنهم متخلفون علميا وحضاريا وتكنولوجيا ، وأنهم محتاجون للغرب للحصول على كل وسائل الحياة الحديثة وكل وسائل المعرفة .. وعندما تحدث أحد كبار شيوخنا الأجلاء فقال : إن الله سبحانه وتعالى قسم الأرزاق بين عباده ، فجعل أهل الغرب يتعبون ويسهرون الليالى ليبتكروا ويخترعوا .. وجعل المسلمين يستفيدون من هذه الاختراعات دون جهد .. لكى يتفرغوا لعبادة الله .. لتكون لهم الجنة وللآخرين النار .. !

فأهل الغرب تعبوا كثيرا ليصلوا إلى اختراع الطائرة .. ونحن نستمتع بركوبها دون تعب .. وأهل الغرب اخترعوا التليفزيون والفيديو والميكروسكوب والأشعة والأدوية والأمصال والسيارة والأقمار الصناعية والكمبيوتر .. هم اخترعوا .. وهم بذلوا الجهد والعرق لصناعة كل هذه الاختراعات .. ونحن نأخذها منهم ونستفيد بها .. فالله سبحانه وتعالى سخر الغرب للمسلمين .. وهذا هو التفوق الحقيقى .. !

عندما كنت أسمع مثل هذا الكلام من شيخنا الجليل كنت أقول لنفسى يا سبحان الله .. هل وصلت بنا عقدة الشعور بالنقص إلى هذا الحد .. إلى حد أننا لم نعد ندرك أننا لسنا فى موقع القيادة أو التأثير .. وأننا محتاجون للغرب لكى نعيش .. وأننا فى الحقيقة سوق يبيع فيه الغرب منتجاته ومواد خامًا وبترولاً يعتمد عليها الغرب فى تقدمه .. وبدلا من الاعتراف بهذه

الحقيقة تتجاهلها .. وبدلا من دعوة الأمة إلى الاستيقاظ وإدراك أن التقدم ليس له إلا طريق واحد هو : العلم .. وأن المسلمين يجب أن يشاركوا فى الحضارة الحديثة بالإضافة وليس بمجرد شراء الاختراعات واستخدامها ..

ومثل أقوال شيخنا الجليل هذه تصل إلى الغرب بمنتهى السرعة .. ويهتمون بتحليل الفكر والعقلية التى تتعامل مع حقائق الحياة الحديثة بمثل هذا المنطق .. وأذكر أيضا أن شيخنا الجليل قال مرة : إن الغرب اخترع الصواريخ والأقمار الصناعية التى تدور فى الفضاء .. ما فائدة هذه الأقمار الصناعية .. ؟ تذهب إلى القمر .. ؟ أو إلى المريخ .. ؟ أو إلى كوكب الزهرة .. ماذا استفدت من ذلك .. ؟ منديل الورق الكلينكس هذا أكثر فائدة لى من كل الأقمار الصناعية .. ! وبعد أيام قليلة وجدت مجلة « الاكسبريس » الفرنسية تنشر هذا الحديث على صفحة كاملة لكى « يتفرج » الغربيون على المسلمين وكيف يفكرون .. ؟

فالغرب يبحث فى العالم الإسلامى عن أى شىء يدعم به نظريته القديمة التى تقوم على أن المسلمين متخلفون ؛ لأن الدين الإسلامى ذاته دين تخلف .. وهذه النظرية فى حقيقتها نظرية سياسية وليست نظرية دينية .. لأنها لا تدخل فى العقائد أو الإلهيات إلا عند قلة من المفكرين ، وأكثرها يبحث عن الإسلام لكى يتوصل إلى ما يخدم السياسة والأهداف والمصالح الاقتصادية الغربية .

* * *

صمويل هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية كتب مقالا مشهورا لخص فيه نتائج مشروع لمعهد أولين حول بيئة الأمن المتغيرة والمصالح الوطنية الأمريكية ، والفكرة الأساسية فى هذا المقال أن النزاع فى العالم الجديد لن يكون الأيدلوجيا أو الاقتصاد فى المقام الأول ، ولكن الانقسامات

الكبرى بين البشر ستكون انقسامات ثقافية ، والمصدر المسيطر على نزعات العالم سيكون مصدرا ثقافيا ، وستكون الصراعات بين أمم لها حضارات مختلفة بعد أن كان الصراع فى الماضى قائما بين الأمراء والأباطرة والملوك وبعد أن أصبح الصراع بين الأمم – وليس بين الملوك – أى « انتهت حروب الملوك وبدأت حروب الشعوب » واستمر الأمر كذلك فى القرن ١٩ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبعد ذلك أدى الصراع بين الأمم – نتيجة للثورة الروسية ورد الفعل تجاهها – إلى نزاع بين الأيديولوجيات .. بين الشيوعية والنازية والفاشية من ناحية ، وبين الديمقراطية الليبرالية من ناحية أخرى .. وبعد هزيمة النازية والفاشية أصبح الصراع بين الشيوعية والديمقراطية الليبرالية .. لم يكن الصراع بين أوربا وأمريكا ضد روسيا كدولة .. ولكن كان الصراع بين أيديولوجيا الغرب وأيديولوجيا العالم الشيوعى .. وبعد انتهاء الحرب الباردة يتحرك الصراع ناحية أخرى .. ليصبح صراعا بين الحضارة الغربية والحضارات غير الغربية ..

وأثناء الحرب الباردة كان العالم منقسما إلى العالم الأول ، والعالم الثانى ، والعالم الثالث .. والآن لم تعد هذه الانقسامات موجودة .. ولم تعد الدول تتجمع على أساس اعتناقها لنظم سياسية أو اقتصادية واحدة .. ولكنها تتجمع الآن على أساس اتفاقها فى ثقافة وحضارة واحدة ..

ماذا يعنى « هنتنجتون » بكلمة « الحضارة » .. ؟

يقول : إن الدول والمجموعات العرقية والقوميات والمجموعات الدينية لها ثقافات متميزة .. وهناك اختلافات فرعية مثل الاختلافات الثقافية بين ايطاليا وألمانيا وبريطانيا وأمريكا .. ولكن هناك إطار ثقافى يجمع الغرب ويجعل المجتمعات الغربية تربطها ملامح ثقافة تميزها بوضوح عن المجتمعات العربية أو الصينية .. وليس هناك إطار ثقافى واحد يجمع الأوربيين والعرب

والصينيين فى كيان ثقافى أوسع .. فهم إذن ليسوا حضارة واحدة .. ولكنهم حضارات مختلفة ومستقلة .. الحضارة هى التى تميز مجموعة من البشر عن غيرها .. تقوم على اللغة ؛ والدين ، والتاريخ ، والعادات ، والمؤسسات .. وقد تكون الحضارة دولة واحدة مثل الصين واليابان .. وقد تكون عدة دول وأمم مثل الحضارة الغربية .. ومثل الحضارة العربية .. وللحضارة الغربية صورتان : أوربية ، وأمريكية . أما الإسلام فإن أقسامه الفرعية عربية ، وتركية ، وماليزية .. الخ .. والحضارات تصعد وتنهار .. وتنقسم وتندمج .. وكما حدث فى التاريخ فإن الحضارات يمكن أن تندثر وتدفن فى الرمال .. !

* * *

وخلال الفترة القصيرة القادمة سيتم تشكيل العالم فى ضوء نتائج الصراع بين حضارات كبيرة تشمل الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة الهندوسية والحضارة اليابانية .. وربما الحضارة الأفريقية .. وستكون المنازعات فى المستقبل على خطوط التقسيم الثقافى التى تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى ..

ومهما فعلنا سيحدث هذا الصراع بين هذه الحضارات .. لأن الفروق بين الحضارات واسعة وحقيقية ولا يمكن تجاوزها .. وكل حضارة تتمايز عن غيرها بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد .. وأهم من كل ذلك « الدين » .. كل حضارة تختلف عن غيرها فى تحديد علاقة الإنسان بالله .. وعلاقة الفرد بالمجموعة .. وعلاقة المواطن بالدولة .. وعلاقة الآباء بالأبناء .. وعلاقة الأزواج بالزوجات .. كل حضارة لها رؤية مختلفة عن غيرها من الحضارات فى النظر إلى الحقوق والواجبات .. والحرية والسلطة .. والمساواة والتفاوت الطبقى .. وهذه الفروق ليست سطحية .. ولكنها تجعل كل أهل حضارة مختلفين من حيث الكيان .. ومن حيث الجوهر .. عن غيرهم من أهل

الحضارات الأخرى .. هى فروق أساسية نتاج قرون .. ولن تختفى سريعا .. الخلافات بين الحضارات أكبر وأعمق من الخلافات بين الأيديولوجيات والنظم السياسية ..

* * *

والعالم يتقارب الآن .. والتفاعلات بين شعوب الحضارات المختلفة تتزايد .. والتفاعلات تزيد وعى الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بينها وبين الحضارات الأخرى .. والفروق بين الناس هنا وهناك .. ونرى الآن حساسية الأمريكيين من الاستثمار اليابانى فى أمريكا ، ولا نجد هذه الحساسية من استثمار الأوربيين أو الكنديين فى أمريكا .. ! وهكذا يمكن أن نفهم الحساسية فى الغرب من العرب والمسلمين .. !

والاتجاه السائد فى التغيير الاقتصادى والاجتماعى فى العالم الآن تقارب الفروق بين الدول .. بحيث إن الدولة ليست هى مصدر الهوية ولكن « الدين » هو الذى يملأ الفجوة الآن ويصبح مصدر الهوية .. ولذلك بدأت تظهر حركات توصف بأنها « أصولية » .. وتوجد هذه الحركات فى المسيحية الغربية .. وفى اليهودية .. وفى الإسلام .. وأيضا فى البوذية والهندوسية .. ومعظم هذه الحركات قائمة على الشباب الحاصل على التعليم الجامعى .. والفنيين من الطبقة الوسطى والمهنيين ورجال الأعمال ، ويرى فلاسفة الغرب الآن أن إحياء الدين يوفر الأساس الجديد للهوية ويجعل الالتزام يتجاوز حدود الوطن الصغير ..

* * *

والآن : الغرب فى أوج قوته ، ونتيجة لذلك يحدث ارتداد فى الحضارات غير الغربية .. مثل إعادة الأسلمة إلى الشرق الأوسط .. وإعادة الطابع

الهندوسى إلى الهند ، وإعادة الروح الآسيوية إلى اليابان .. وفى الماضى كانت الصفوة فى كل المجتمعات غير الغربية تقلد الغرب وتتعلم فى جامعات اكسفورد والسوربون وسائد هيرست ، وتعتنق القيم الغربية وتلتزم بالسلوك الغربى .. بينما يظل « عامة الناس » متشبثين بثقافة بلدهم .. الآن يحدث العكس .. يحدث « انتزاع » للطابع الغربى .. وغرس الطابع المحلى الأصلى فى الصفوة .. بينما تنتشر الثقافة والأساليب والسلوك والعادات الغربية — الأمريكية بين جماهير الناس ...

ومن الممكن أن نتصور التغير فى الناس من الناحية السياسية أو الاقتصادية ، ولكن الصعب جدا أن تتغير الخصائص والفروق الثقافية .. فى الاتحاد السوفيتى السابق مثلا تغيرت الأحوال الاقتصادية والسياسية .. أصبح الشيوعيون ديمقراطيين .. وأصبح الأغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء .. ولكن لا يمكن أن يصبح الروس اذربيجان أو أرمن .. فى الصراع الأيديولوجى كان السؤال : إلى أى جانب نقف .. مع الفقراء أم مع الأغنياء .. وتستطيع أن تغير موقفك بإرادتك .. أما فى الصراع بين الحضارات فإن السؤال هو : « من أنت » ؟ .. وقد يكون ثمن الإجابة رصاصة فى الرأس .. ! والدين يفصل بين الناس بصورة أكثر حدة .. فالإنسان يمكن أن يكون نصف فرنسى ، نصف عربى ، أو لديه جنسية مزدوجة ، ولكن لا يمكن أن يكون نصف كاثوليكى ونصف مسلم .. !

* * *

وأخيرا فإن النزعة الاقليمية الاقتصادية تزداد يوما بعد يوم ، فقد ارتفعت نسبة التجارة داخل دول أوربا ، وكذلك ارتفعت نسبة التجارة بين دول شرق آسيا ، وفى داخل أمريكا .. وتزداد أهمية الكتل الاقتصادية الاقليمية .. وكلما ازدادت النزعة الاقليمية الاقتصادية ازداد الوعى بالحضارة .. فالجماعة

الأوربية تقوم على أساس مشترك للثقافة الأوربية والمسيحية الغربية ، وعلى النقيض من ذلك تجد اليابان صعوبة فى إقامة كيان اقتصادى مماثل فى شرق آسيا ، لأن اليابان حضارة فريدة بذاتها ، ومهما تكن قوة الروابط التجارية والاستثمارية التى تقيمها اليابان مع دول شرق آسيا فإن الخلافات الحضارية تعرقل .. بل تستبعد .. قيام تكامل اقتصادى اقليمى مثل الاتحاد الاقليمى فى أوربا وأمريكا الشمالية ..

أما بالنسبة للإسلام والمسلمين فإن الثقافة والدين هما أساس منظمة التعاون الاقتصادى التى تضم الدول الإسلامية غير العربية مثل إيران ، وباكستان ، وتركيا ، واذربيجان ، وكازاخستان ، وتركمستان ، وطاجيكستان ، وأزوبكستان ، وأفغانستان .

والخلافات فى الثقافة والدين تخلق خلافات حول قضايا سياسية مثل حقوق الإنسان ، أو الهجرة ، أو التجارة ، أو البيئة .

أهم من ذلك – يقول هنتنجتون – إن جهود الغرب لدعم القيم الغربية مثل الديمقراطية والليبرالية ليجعلهما قيما عالمية .. وجهود الغرب للحفاظ على هيمنته العسكرية ودعم مصالحه الاقتصادية .. تولد ردود أفعال مضادة من الحضارات الأخرى .. وإذا كانت الحكومات غير قادرة على حشد الناس على أساس الأيديولوجية فليس أمامها إلا حشدهم باستغلال الدين والهوية الحضارية المشتركة .

هكذا يصل هنتنجتون إلى أن صدام الحضارات يحدث على مستويين .. على المستوى الجزئى تتصارع المجموعات المتجاورة على خطوط التقسيم بين الحضارات لكى يسيطر بعضها على أراضى الآخر .. وعلى المستوى الكلى تتنافس دول من حضارات مختلفة لامتلاك القوتين : العسكرية والاقتصادية ،

وتتصارع ثانيا على السيطرة على المؤسسات الدولية ، وتسعى إلى ترويج الدين الذى تعتنقه وقيم هذا الدين .

خطوط التقسيم بين الحضارات الآن هى البديل للحدود السياسية والأيديولوجية التى كانت أيام الحرب الباردة .

وبصراحة .. وبوضوح .. يقول هنتنجتون : إن التفاعل بين الإسلام والغرب هو صدام حضارات .. ويستشهد هنتنجتون بمؤلف هندى مسلم هو م . ج . أكبر لكى يتوارى خلفه ، قال : « إن المواجهة التالية ستأتى حتما من العالم الإسلامى ، وستبدأ الموجة الكاسحة التى تمتد عبر الأمم الإسلامية من المغرب إلى باكستان » ويستشهد أيضا بمؤلف غربى هو برنارد لويس قال : « إننا نواجه حركة تعبر عن صدام حضارات .. وربما يكون هذا الصدام غير رشيد ، إلا أنه رد فعل تاريخى لخصم تاريخى لميراثنا اليهودى المسيحى ، ولحاضرنا العلمانى ، وخصم للتوسع العالمى للمسيحية والعلمانية معا .. هو الحضارة الإسلامية . وتاريخيا كان العداء بين الحضارة العربية الإسلامية وبين عبدة الأوثان ، وحاليا الصراع بين الإسلام والغرب المسيحى .. ومما يعكس احتدام هذا النزاع خطاب البابا يوحنا بولس الثانى فى الخرطوم فى فبراير ١٩٩٣ الذى هاجم فيه حكومة السودان ووصفها بأنها حكومة إسلامية ضد الأقلية المسيحية . وتفجر النزاع بين الإسلام والغرب فى البوسنة .. وفى أرمينيا ، وبين الروس والمسلمين فى آسيا الوسطى ، والقوقاز ، والصدام بين المسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية هو صراع حضارات .

ويقول هنتنجتون : إن المسلمين يقارنون أعمال الغرب ضد العراق بتخاذل الغرب عن حماية المسلمين فى البوسنة وعدم فرض عقوبات على إسرائيل لانتهاكها قرارات الأمم المتحدة ، ويفهمون من ذلك أن الغرب يكيل

بمكيالين ، مع أنه من المحتم أن يكون عالم الحضارات المتصادمة هو عالم الكيل بمكيالين .. !

* * *

حقا إن الغرب الآن فى أوج قوته بالنسبة للحضارات الأخرى وخاصة الإسلام .. اختفت الدول العظمى التى كانت تقف ضد الغرب .. القوة العسكرية للغرب بلا منافس .. فيما عدا اليابان لا يواجه الغرب أى تحديات اقتصادية .. والغرب يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية .. ويهيمن مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدولية .. وتسوية القضايا السياسية والأمنية العالمية تتم بيد الغرب وليس للدول غير الغربية دور .. والقرارات التى يصدرها مجلس الأمن وصندوق النقد الدولى لا تعكس إلا مصالح الغرب وتقدم على أنها تعكس إرادة دولية .. واسم « المجتمع الدولى » أصبح تسمية ملطفة لمصالح الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى .. ويفرض الغرب من خلال صندوق النقد الدولى السياسات الاقتصادية التى تناسبه .. والمفاهيم الغربية تنتشر فى العالم تحت مسميات : الفردية ، والليبرالية ، وحقوق الإنسان ، والديمقراطية ، وآليات السوق ، ولكن هذه المفاهيم تجد مقاومة فى العالم الإسلامى ، وهناك من يرى أنها تعبر عن امبريالية جديدة هى امبريالية حقوق الإنسان .. وفى العالم الإسلامى رد فعل عكسى يقاوم ويدعو إلى إعادة تأكيد الهوية والقيم الأصلية ..

وبذلك فإن إمكان قيام « حضارة عالمية » غربية بعيدة عن التحقق .. هكذا يقول هنتنجتون .. ويقول أيضا : إن هناك دولا ستنقسم .. تركيا أبرز وأوضح بلد ممزق .. تحالفت مع الغرب وطلبت عضوية الجماعة الأوربية بينما فيها عنصر يرفض الارتماء فى أحضان الغرب ، ويطلب إحياء الإسلام ويرى أن تركيا مجتمع إسلامى .. النخبة فى تركيا تعتبر تركيا مجتمعا غربيا

بينما النخبة فى الغرب ترفض قبول تركيا كجزء من الغرب .. وقال أوزال – الرئيس التركى السابق – إن السبب فى رفض عضوية تركيا للجماعة الأوربية « أننا مسلمون » وهم مسيحيون وهم لا يقولون ذلك .

وأخيرا يرى هنتنجتون أن هناك تحالفا بين حضارتين هما الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشية ضد الحضارة الغربية .. وبدأت الدول الإسلامية تسعى إلى الحصول على الأسلحة النووية والأسلحة الكيماوية والأسلحة المتطورة من الدول الكونفوشية (الصين – اليابان – كوريا الشمالية) تطبيقا لنظرية تقول : لا تحاربوا الغرب إلا إذا كانت لديكم القنبلة الذرية ..

إلى هذا الحد وصل الفكر الغربى فى فهم العلاقة بين الإسلام والغرب .. ونظرية هنتنجتون بالذات لها الآن جاذبية وتأثير كبيران فى الولايات المتحدة وكل دول أوربا ، وإن كانت تبدو لنا نوعا من الرياضة الفكرية أو البحث النظرى الذى لا يمكن أن يترتب عليه عمل ، فإن ما يحدث هو العكس ، فهذه النظرية مؤثرة فى مراكز صنع القرار ، ومراكز البحث ، والمشتغلين بالثقافة والسياسة على حد سواء ..

ولم ينبهنا أحد إلى ذلك رغم أن هذا الجمر مشتعل تحت الرماد منذ سنوات طويلة .

وهذه النظرية هى التى يعتمد عليها التخطيط الاستراتيجى فى الغرب على المدى الطويل .. والنظرية تقول أيضا : إن من مصلحة الغرب على المدى القصير أن يكون هناك تعاون مع الحضارة الإسلامية والكونفوشية ، والعمل فى نفس الوقت على ألا تمتلك الدول الإسلامية قوة عسكرية والحفاظ على التفوق العسكرى الغربى الساحق ، وأكثر من ذلك تدعو هذه النظرية إلى إثارة المنازعات بين الدول الإسلامية والدول الكونفوشية ، ودعم المجموعات

الحضارية المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية ، وتقوية المؤسسات الدولية التى تعكس المصالح والقيم الغربية ، وإذا كانت الدول الإسلامية تسعى إلى امتلاك مصادر القوة الاقتصادية والعسكرية فإن على الغرب أن يحتفظ بالقوة الأكبر ..

والخلاصة التى تصل إليها هذه النظرية الخطيرة هى أن على الغرب أن يبحث عن عناصر مشتركة تجعله قادرا على أن يقترب وأن يخترق الحضارات الأخرى ، والحضارة الإسلامية بالذات .. لأنه فى المستقبل لن تكون هناك حضارة عالمية واحدة ، بل ستكون هناك حضارات مختلفة .. وستظل مختلفة ..

* * *

ولو حللنا مضمون الكتابات الغربية فى الصحف أو الدراسات الجامعية السياسية والاستراتيجية فسوف نجد روحا تعكس هذا العداء بصورة أو بأخرى .. وبعضهم يصرح بأن الصراع بين الغرب والإسلام تمتد جذوره فى الزمان إلى ١٣٠٠ عام .. وبعضهم الآخر يعترف بأن هناك جهودا غربية لتشويه التاريخ القديم والواقع الحالى للعالم الإسلامى ، وإنكار ما قدمه العرب والمسلمون للحضارة البشرية ، وكيف كانت العلوم التى ازدهرت فى الحضارة الإسلامية هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة حين ترجمت هذه العلوم إلى اللغة اللاتينية .. وبعض الكتاب الغربيين يقولون : إن الحضارة الإسلامية تمثل الآن تهديدا لحضارة الغرب .. فالمسلمون « يخرجون الآن من بين الأنقاض .. ويريدون أن يلعبوا فى ملعب ظل قرونا الغرب وحده ! كما كتب مفكر آخر هو وليام لسيند فى مجلة الس الخارجية فى مقال بعنوان « دفاع عن الحضارة الغربية » .

ويردد مفكرو الغرب أفكارا تبدو غريبة علينا ، مثل حملة تشويه التاريخ

بإظهار المسلمين كقوة عدوانية تهدد الغرب كلما امتلكت القوة ، ويصورون المسلمين كغزاة : المغاربة البربر الذين غزوا اسبانيا .. العرب المسلمون الذين أغاروا على فرنسا وايطاليا ، الأتراك الذين وصلت جيوشهم إلى النمسا ، التتار الذين هزموا موسكو ، ولا يذكرون كثيرا أن الغرب استعمر العالم الإسلامى ثلاثة قرون .. ونجد من يثير حملة مبالغا فيها حول امتلاك بلاد إسلامية لبرامج نووية مثل باكستان وايران والعراق دون ذكر لامتلاك إسرائيل لترسانة نووية ورفضها الانضمام إلى معاهدة حظر التجارب النووية ورفض التفتيش الدولى على منشآتها النووية .. ويتحدثون كثيرا عن الخطر الذى تمثله الجاليات الإسلامية فى دول أوربا مثل ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ..

ومفكر غربى مثل المستشرق الفرنسى المعروف جاك بيرك يقول : إن الغرب يصر على إلصاق صفة التطرف بالمسلمين والعرب على وجه الخصوص ، لأن العرب تجمعهم مع الغربيين صفة الجوار والعداوة أيضا .. كما لا يخفى الغربيون خوفهم الدائم من الإسلام لأن المجتمعات الإسلامية هى العقبة الكبيرة فى طريق أى محاولة غربية لاستقطاب العالم .. فالولايات المتحدة وصديقتها إسرائيل تريدان السيطرة على العالم ، وإخضاع كل مناطقه لنفوذهما المباشر ، وليس خافيا لأحد أن الشعوب الإسلامية هى التى تقف فى طريق هذه الإرادة ..

هذا ما يقوله جاك بيرك وما نشر فى صحيفة الأهرام فى عدد ٢٢ أبريل ٩٤ .. ويقول أيضا : « إن خوف الغرب من الإسلام يأتى من جوانب ثلاثة : الأول أن العرب والمسلمين هم الأكثر قربا من حيث الجوار الجغرافى ، والثانى أنهم الأكثر عداوة بسبب ذكريات الماضى الاستعمارى ، والثالث أنهم العقبة أمام السيطرة الغربية على العالم .

وإسرائيل لها أصابع تتحرك وراء هذه المخاوف والعداوة يجب ألا نغفل الإشارة إليها . !

* * *

إسرائيل فيها مراكز أبحاث متخصصة تروِّج لدراسات تثير مخاوف الغرب من الإسلام والمسلمين باعتبار أن أكثرهم إرهابيون ومتعصبون ويكرسون جهدهم لتدمير الحضارة الغربية ، وإسرائيل هى أول من دعا إلى تحالف دولى ضد « الأصولية الإسلامية » .. وفى كل يوم تنشر الصحف الإسرائيلية مقالات وأخبارا تثير وتعمق المخاوف الغربية من الإسلام عموما ، ومن الحركات الإسلامية على أنها تمثل حقيقة الإسلام والمسلمين وهى الخطر الأول على استقرار الشرق الأوسط واستقرار العالم .. !

ويستغل الكتاب حركات التطرف والإرهاب ليصوروا للغرب أن هذا هو الإسلام ، وأن هؤلاء الإرهابيين هم الممثلون لحقيقة الإسلام ، وأن العالم سيصير إلى خراب ودمار وفوضى لا مثيل لها إذا ترك الإسلام وشأنه ..

الحماقات والأخطاء على الجانب الإسلامى تجد دائما من يركز عليها الأضواء فى العالم الغربى ، ويهول من شأنها ، ويقدمها بصورة مكبرة أكبر من حجمها الأصلى ألف مرة ..

والأمثلة كثيرة .

* * *

فى كتاب « الغرب والإسلام » ترجمت الأستاذة منى ياسين مقالا مهما كتبته صحفية معروفة فى جريدة نيويورك تايمز المعروفة بعدائها للعرب والإسلام وانحيازها الكامل لإسرائيل ، وهذا المقال يستحق الوقوف عنده فهى

تقول : إن العاصمة السودانية الخرطوم شهدت اجتماعا لمدة أربعة أيام فى أبريل ١٩٩١ جمع سياسيين ومثقفين إسلاميين قياديين من ٥٥ دولة من ثلاث قارات لوضع استراتيجية مشتركة لإقامة دول إسلامية فى بلادهم ، وكان من المشتركين راشد الغنوشى القائد المنفى من تونس ، وإبراهيم شكرى رئيس حزب العمل فى مصر ، وقلب الدين حكمتيار القائد الراديكالى المتشدد فى أفغانستان ، وعباس مدنى زعيم التيار الأصولى فى الجزائر ، ووفد عالى المستوى من إيران ، وغيرهم كثير ، وكان المضيف هو حسن الترابى الزعيم الروحى والعقل المفكر للحكومة العسكرية الإسلامية السودانية الذى أشرف على محاولة وضع مشروع خطة عمل لتحدى « طغيان الغرب » ، وأقرت المجموعة فى النهاية « مانفستو » من ست نقط يرمى إلى بيان أنه مهما كانت قوة أمريكا والغرب فى أعقاب حرب الخليج فإن « الله أكبر » وقراءة البيان فى مجموعه تجعل الرسالة الكامنة وراءه واضحة فى حرب الإسلام ضد الغرب .. وإن مؤتمر الخرطوم هذا هو مجرد مثال للقوة الصاعدة للإسلام النضالى ، بعد ثورة الخمينى فى إيران عام ١٩٧٩ ثم قيام الحكم الذى يعلن أنه « إسلامى » فى السودان ، وهناك من يرى الإسلام باعتباره « التهديد الأخضر » ..

وتتساءل جوديث ميلر : كيف ينبغى أن يكون رد فعل الأمريكيين .. ؟ وهى ترى أن « الإسلام السياسى » خلق مزيجا قابلا للاشتعال .. وتضرب مثلا من الجزائر لتدلل على خطورة المسلمين لأنهم يظهرون بوجه طيب ويخفون الوجه الحقيقى ، وتقول : إن قادة جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر كانوا يحيون حياة تسودها لغتان .. فقد قدموا لفقراء الجزائر شعارات غامضة عن الخلاص الروحى ، والخلاص الاقتصادى من خلال الإسلام ، بينما قدموا للصحفيين وللطبقة الوسطى الأكثر فرنسة والمحبطة سياسيا تأكيدات بإيمانهم بالديمقراطية وحقوق الإنسان ، ولكن نغمتهم ورسالتهم تغيرتا فجأة

بعد نجاحهم فى الجولة الأولى فأعلنوا « لا قانون ولا دستور وإنما قوانين الله والقرآن فقط » .. وفى السودان وصل الإسلام إلى السلطة بانقلاب عسكرى ، ويكرر قادة السودان الآن كالببغاوات المبادئ التى صاغها حسن الترابى ، ومنذ وصلت الحكومة الإسلامية إلى الحكم ألغت حرية الصحافة ، وحظرت قيام الأحزاب ، وأجبرت المرأة على النقاب ، وعذبت المعارضين لها فى « بيوت الأشباح » المنتشرة حول الخرطوم .. وكان حظ الأقليات أسوأ كثيرا .. فقد اتهم الأساقفة الكاثوليك الحكومة السودانية بشن حرب مقدسة ضد المسيحيين فى الدولة وهم ١٠٪ من السكان .

وتضرب مثالا آخر من إيران وهى الآن معادية للغرب والولايات المتحدة بالذات ، وفيها إهدار كامل لحقوق الإنسان ..

وتنتهى جوديث ميلر -- مثل غيرها من كتاب الغرب - إلى أن الإسلام ذاته ضد الحرية والديمقراطية ، وضد حقوق الإنسان ، وقوانينه لا تقبل التعديل أو التطور ، والحكم باسم الشريعة يعنى الحكم الدكتاتورى المطلق ، وتستشهد بكاتب آخر هو برنارد لويس المعروف كمؤرخ متخصص فى شئون الشرق الأوسط وهو يقول : إن طبيعة الإسلام وتاريخه والعلاقة بين الإسلام والسلطة لا تجعل الإسلام والديمقراطية رفيقين ، وإن الإسلام خلال تاريخه لم يعترف أبدا بالمؤسسات النيابية مثلما حدث فى اليونان أو فى القوانين الرومانية ، والدولة الإسلامية دولة ثيوقراطية ، ليس بالمعنى الغربى الذى كان يعرف الدولة الثيوقراطية على أنها دولة تحكمها الكنيسة ، ولكن فى الإسلام الدولة يحكمها الله ! ويفهم المسلمون أن الله يحكم بالمعنى الحرفى ويؤمنون بأن السلطة تأتى من الله وحده ، وحيث أن الحاكم يستمد سلطته من الله والقانون المقدس ، وليس من الشعب ، فإن معارضة سلطة الحاكم هى تحد لله ، ومخالفته خطيئة ، وحكم الفرد هو القاعدة ، ولا تجد مفاهيم التعددية أو

النقد أو حق الاختلاف قبولا من المسلمين .. ! ولذلك فإن الإسلام ضد حقوق الإنسان .. !

وهكذا ..

يخلطون أولا بين الإسلام كدين تعتنقه الملايين ، وهو إسلام معتدل ، يقوم على احترام الإنسان وحريته ، ويمد اليد للتعاون مع المخالفين فى العقيدة ، وينشد السلام مع كل الشعوب ، ويرفض العنف بكل صوره .. وبين الإسلام كما يبدو فى جماعات العنف والإرهاب .. أو فى حكومات دكتاتورية تريد تبرير نظم القهر فتدعى أنها تحكم بالإسلام ، وأن مخالفيها كافرون يستحقون القتل ..

هذا الخلط مقصود ومتعمد ..

لأن الباحثين الغربيين بمالديهم من أجهزة ومعلومات ومراكز أبحاث لن يعجزوا عن فهم النصوص الإسلامية .. ولن يعجزوا عن التفرقة بين النصوص والأحاديث الصحيحة والنصوص والأحاديث المزيفة المدسوسة على الإسلام .. وهم يعرفون جيدا « الإسرائيليات » ودورها فى تشويه عقائد وفكر الإسلام .. يعرفون كل هذا ولا يجهلونه .. ولكنهم يتجاهلون .. !

وهم يعرفون جيدا أن جماعات القتل والتخريب التى تظهر فى الدول الإسلامية ترفع شعارات الإسلام ولكنها فى الحقيقة لا تعبر عن الإسلام ، ولكنها تعبر عن القوى المحركة لها من خارج العالم الإسلامى التى تسعى إلى تدمير الإسلام من الداخل ..

القضية .. أن الإسلام فى منطقة أطماع ومصالح .. والغرب يعرف جيدا أنه ظالم لأهل هذه المنطقة ..

الغرب ظالم لأهل هذه المنطقة لأنه فرض عليها الاستعمار والتخلف أكثر من قرن حتى الآن .. ويمنع عنها مصادر التقدم العلمى والتكنولوجى ..

ويمتص خيراتها .. ويريد أن تظل سوقا لمنتجاته وتبقى مستهلكة لمنتجاته ولا تصبح منتجة أبدا .. وتظل فقيرة .. ومنقسمة .. وتبقى إسرائيل هى القوة الوحيدة ..

ولكى يحقق الغرب ذلك لابد أن يفرضه بالقوة .. بالقمع ..

ولأن العصر ليس عصر استعمار عسكرى فقد ابتكر صورا جديدة للاستعمار العسكرى والاستعمار الاقتصادى والاستعمار العقلى والثقافى ..

ولكى يبرر الغرب عدوانه على أهل هذه المنطقة فهو لا يستطيع أن يكشف الأهداف السياسية التى تمثل الأصول والجذور لكل هذا الصراع ، فيصور أن الصراع صراع أديان أو صراع حضارات أو صراع ثقافات .. أو أى شىء آخر ..

المهم أن يقدم الغرب لنفسه ولنا تبريرا لنواياه العدوانية وسلوكه العدوانى ..

وتبقى الحقيقة .. وهى أن الإسلام كدين يدعو إلى التسامح والإخوة الإنسانية والمساواة بين البشر .. ومن يقل بغير ذلك فهو كاذب أو جاهل .. وإن الإسلام كدين يدعو إلى السلام ويرفض الإكراه والعنف والقتل ..

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ..

يكفى هذا المبدأ الذى رفعه الرسول ﷺ لكى يفهم حقيقة الإسلام من يريد أن يفهم حقيقته .. !

تزوير التاريخ .. والتضليل الإعلامى

يلخص المستشرق الألمانى جيرنوت روتر أسباب رسوخ وانتشار الفكرة الغربية عن الصراع الحتمى بين الإسلام والغرب ، فيقول : إن الغرب كان لديه عدو ظاهر هو الشيوعية ، وكان الغربيون يجدون تقسيم العالم منطقيا ، فالأخيار فى المعسكر الغربى ، والأشرار فى المعسكر الشرقى ، وهكذا كانت صورة العدو بسيطة وسهلة الفهم حتى إنك لو سألت أى طفل فى أوربا أو أمريكا فسيقول لك : إن العدو هو الشيوعية ، وإنها خطر على البشرية وعلى الحضارة الإنسانية . وإنه يشعر بالكراهية لها ولكل ما يتعلق بها ، ويتمنى أن تزول من الوجود .. فلما انهارت الشيوعية ، حدث ارتباك فى المعسكر الغربى منذ عام ١٩٨٩ ، بعد أن أصيبت صورة « العدو » بالتصدع ، وأصبحت غير صالحة للاستعمال ، وبالتالى لم يعد لدى السياسيين وتجار السلاح سبب يبررون به ارتفاع النفقات العسكرية فى الغرب والتسابق على ابتكار أسلحة وأدوات قتل جديدة .. كان طبيعيا أن يعملوا حسابا لدافع الضرائب الذى سيسألهم لماذا كل هذا الإنفاق الهائل مادام « العدو » قد انتهى وانهزم ولم تعد الشيوعية قائمة فى أى مكان فى العالم .

وعندما انقض صدام حسين على الكويت ، بعد ذلك بشهور وجد الغرب ضالته المنشودة ، وأصبح هذا الغزو سببا كافيا لإطلاق صيحات التخويف والتحذير بأن إمدادات البترول التى تقوم عليها حضارة الغرب فى خطر ، ويقول المستشرق الألمانى : إن توقيت عدوان صدام حسين على الكويت مناسب جدا ، ودقيق جدا ، إلى درجة أن البعض لم يشأ أن يصدق فى الواقع أنه حدث بالمصادفة ، فقد كان هذا الغزو « هدية » قدمت للغرب ضالته

المنشودة . قدمت عدوا وهميا جديدا هو الإسلام .. صدام حسين فعل مالم يفعله الخميني .. فقد خلق صدام حسين أجواء معادية للإسلام ، ودارت عجلة الإعلام الجهنمية فى الغرب لتصور هذا العدوان على أنه تعبير عن الخطر الإسلامى ، ولا تصوره على أنه نوع من الاعتداء السياسى والعسكرى يمثل أطماعا فى التوسع وفرض النفوذ .

انهيار الشيوعية من ناحية ، والفراغ الذى حدث نتيجة لذلك فى الفكر الغربى لعدم وجود عدو يعطى الغرب الفرصة للحشد والتحفز وإنفاق المليارات على الأسلحة .. وظهور صدام حسين كخطر على الغرب .. والمبالغة فى وصف قوة الجيش العراقى وما لدى العراق من أسلحة نووية وبيولوجية وصواريخ حتى أن من يتابع تقارير مبعوث الأمم المتحدة الذى يتولى التفتيش على الأسلحة فى العراق وتدميرها يظن أن صدام حسين كان يستعد لغزو العالم كله والاستيلاء عليه وكأنه صورة جديدة من هتلر وقوته وأطماعه .. ثم تصوير صدام حسين على أنه المعبر عن روح الإسلام العدوانية الشريرة التى تعلن غير ما تخفى ، وتضمر الشر والعدوان بغير حدود .. كل ذلك كان التمهيد الطبيعى لظهور نظرية صراع الحضارات فى عام ١٩٩٣ على يد صمويل هنتنجتون مدير معهد الدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد ، لكى يحذر الغرب بأن الصدامات العسكرية المستقبلية ستحدث على طول الحدود بين الحضارات المختلفة بعد أن كانت الحروب تقوم على الحدود السياسية .. ولكى ينبه الغرب إلى أن الصدامات الآتية ستكون حتما بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية .

هذه النظرية الغريبة التى ظهرت فى مقال انتشرت بشكل غريب .. حتى أصبحت جزءا من مسلمات الفكر الغربى الآن .. كل سياسى .. وكل مفكر .. وكل صحفى فى الغرب يتحدث عنها بجدية وكأنها شىء لا يمكن

مناقشته .. يتحدثون عنها وكأن الصدامات القادمة بين الغرب والإسلام لا يمكن تحاشيها ، وسوف تتحقق حتما ومن تلقاء ذاتها .

* * *

يقول المستشرق الألمانى : « إن الاستقبال الإيجابى لهذه الدعوى فى وسائل الإعلام الغربية كان مخيفا حقا ، وهو يثبت شيئا واحدا ، هو أن حرب الحضارات التى تتنبأ بها هذه النظرية قد بدأت بالفعل فى عقول الغربيين .

ويضيف المستشرق الألمانى أن الملاحظ الآن التركيز فى الفكر الغربى على الخلافات بين الإسلام والمسيحية وإغفال نقاط الاتفاق أو التلاقى ، وهناك تجاهل ملحوظ لحقيقة أن منشأ الديانات الثلاث فى منطقة الشرق الأوسط هى السامية ، وأن إبراهيم هو الأب الأول المشترك للأديان السماوية ، وأنها تتفق فى التوحيد ، كما تتفق فى القول بخلود الروح وبالجنة والنار كجزاء للعمل فى الدنيا ، ولكن علماء الأديان فى الغرب يزعجهم أن يكتشفوا أن الديانات الثلاث بينها نقاط اتفاق أكثر مما بينها من خلاف .

ويستنتج المستشرق الألمانى أن التصورات العدائية للإسلام فى الغرب لا تتعلق بمسائل الخلاف فى العقائد على الإطلاق ، وإذا ظهر هذا الخلاف فإنه يظهر بصورة عارضة ، لأن التناقض لا يطرح على أنه بين الإسلام والمسيحية ، بل على أنه بين « الإسلام » و « الغرب » بهدف إظهار الصراع بين ثقافتين وحضارتين .. وهناك من يروِّج منذ سنوات طويلة أفكارا خاطئة عن الإسلام ليخدم هذه القضية .. حتى فى القرون الوسطى ظهر مؤلف ملحمة رولاند الذى يجعل العرب يعبدون محمدا ﷺ ، وأبوللو ، وتيرفا جانت .. وقد لا يفهم العرب والمسلمون هذا لأنه يعتمد على تراث ثقافى

غربى لمجرد أن يصور أن العرب لديهم الثالوث المسيحى ولكن بصورة تحلط ماهو إلهى بما هو وثنى ! وغريب جدا أن يقول أحد إن العرب كانوا يعبدون محمدا .. ولكن الكذب والافتراء ليس لهما حدود .. وأغرب من ذلك ما يشير إليه المستشرق الألمانى من أن بعض كتاب الغرب لكى يشوهوا الإسلام أمام الغربيين قالوا : إن المسلمين كانوا يعبدون « فينوس » إلهة الحب عند اليونان إلى جانب عبادة الله ، وإن المسلمين رفعوا شأن يوم الجمعة وجعلوه أفضل أيام الأسبوع وهو اليوم الذى كان يعتبر في القرون الوسطى .. « يوم فينوس » بينما كان يوم الأحد هو يوم الإله ..

ويقول المستشرق الألمانى أيضا : إن الغرب يربط الإسلام بالتطرف والعنف ، وكثير من المفكرين فى الغرب لا يدركون أن هناك مذاهب وتيارات داخل الفكر الإسلامى ، ولكنهم يصورون الفكر الإسلامى شيئا واحدا .. فكل المسلمين متطرفون .. وكلهم لديهم استعداد لتكفير وقتل من يخالفهم فى الرأى .

ويشير المستشرق الألمانى إلى أن كتب التاريخ المدرسية فى ألمانيا تركز على أحداث عسكرية هامة ، وهى تعلم التلاميذ اتصال الغرب المسيحى بالعالم الإسلامى . مثل معركة بلاط الشهداء التى يسمونها معركة توربواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية وفى هذه المعركة أنقذ شارل مارتل الغرب من الاجتياح الإسلامى ، وهذا كما يقول المستشرق الألمانى « هراء تاريخى » لأن الأمر من وجهة النظر الإسلامية كان يتعلق بمجرد حملة من الحملات التقليدية عديمة الأهمية من الناحيتين : الاستراتيجية والعسكرية ، وبالرغم من ذلك فمازال الحديث عن هذه الواقعة فى الغرب متكررا بقوة لترسيخ فكرة عدوان الإسلام على الغرب منذ زمن قديم . ويتبع ذلك الحملات الصليبية ، وإن كان الغرب لا يمجدها الآن صراحة كعمل بطولى عظيم كما كان يفعل من قبل ، إلا أن

الحسرة على فقدان القدس تظهر تلميحا فى كل ما يكتب فى الغرب حول هذا الموضوع ، ولا يعتبر صلاح الدين فى نظر الغرب قائدا نجح فى حماية الشرق الأوسط من السيطرة الغربية ، ولكن الكتاب يكتبون باحترام شديد عن الأمير أويجن « الفارس النبيل » كمنقذ للغرب والمسيحية ، لأنه أدب المسلمين « الأتراك » ؛ ووضعهم عند حدودهم . والفكرة التى يدور فيها الفكر الغربى هى أن مقصد الإسلام الوحيد هو التوسع بالقوة و « بالنار والحديد » .. ولا أحد فى الغرب يقول : إن التوسع الذى تم على يد حكام مسلمين لا يختلف عن التوسع الذى تم على يد حكام غربيين .. لأهداف سياسية فى كل الحالات .. ولا أحد فى الغرب يقول : إن أوضاع المسيحيين فى البلاد التى فتحها المسلمون كانت أفضل من أوضاع المسلمين فى البلاد التى فتحها الغربيون ! وذلك لأن فكرة أن الإسلام قائم على الغزو والفتح والعدوان هى فكرة مسيطرة على العقل الغربى عموما منذ القرون الوسطى حتى اليوم لم يطرأ عليها تغيير .

* * *

ويقول المستشرق الألمانى فى مقال بعنوان « الإسلام والغرب : الجاران المتخاصمان » ترجمه إلى اللغة العربية ثابت عيد الباحث بجامعة زيوريخ :

« إذا كان المرء فى ذلك الوقت قد استمتع بتصوير محمد ﷺ كوحش شيطانى مخيف ، وبالروايات التى تصف المسلمين وهم يقطعون أطراف الصابيين وهم أحياء .. وينزعون أحشاءهم من أجسامهم برافعة ، فقد احتل مكان ذلك اليوم ما يطلق عليه « الكتب التخصصية » التى تكشف عناوينها بصورة كافية عن مقاصد مؤلفيها ، مثل : « سيف الله » و« سيف الإسلام » و« السيف الأخضر » إلخ . ثم يأتى علاوة على ذلك الحديث عن « مشاعر الجماهير الإسلامية الحماسية التى لا يمكن التنبؤ بها (على حد تعبير الصحفى

الألمانى شول لاتور Scholl - Latour تماما مثل الحديث عن « الرغبة العربية فى تدمير الذات » ويتم تقييم ١٤٠٠ سنة من التاريخ العربى بعبارات مثل « إن حلم تأسيس وطن عربى كبير قد تبدد منذ ٦٢٢م بصورة متكررة مع المذابح والاغتيالات والثورات وأعمال العنف . لقد قضت نشوة القتل والاستشهاد فى مراحل متقطعة على محاولات بناء دولة مستقرة ذات توجهات عقلانية » بغض النظر عن أن حلم تأسيس وطن عربى كبير لم يظهر منذ سنة ٦٢٢م ، ولكن على أكبر تقدير منا منذ نهاية القرن التاسع عشر تحت تأثير فكرة الدولة القومية الأوروبية ، وهو ما يجعل ملاحظة الخبير السابق لشئون الشرق الأوسط جيرهارد كونسلمان لا أساس لها من الصحة التاريخية – تظهر هنا علاوة على ذلك – مثلما هو الحال عند مؤلفين كثيرين آخرين أيضا – بجانب العنف – فكرة نمطية مبتذلة أخرى هى : الزعم بلاعقلانية المسلمين عامة والعرب خاصة .

وإن ما يتحلل تبريرات الزعم بأن الإسلام هو دين عنف كنغمة أساسية هو فكرة الجهاد . يقينا يعتبر « الجهاد فى سبيل الله » فرضا على أمة الإسلام ، ويمكن أن يتخذ صورة الكفاح المسلح ، والواقع أن الجماعات الإسلامية المتطرفة قد أعلنت الجهاد شعارا لها لإضفاء صفة الشرعية الدينية على أعمالها الإرهابية ، ولكن أين يحصل كبار علماء الدين الإسلامى فى وسائل الإعلام الغربية على منبر – أو مجال أو فرصة – ليوضحوا من خلالها أن فريضة الجهاد المسلح تقتصر على حالة الدفاع فحسب ؟ أو ليشرحوا أن الجهاد فى سبيل الله بالمعنى الأصلى للكلمة يعنى فرضا أخلاقيا وروحانيا ؟ وأن يشجبوا إرهاب الجماعات الإسلامية المتطرفة على أنه غير إسلامى بتة .

إن الاتهام الدائم الذى يوجهه الغرب إلى الإسلام بأنه فى الحقيقة دين عدوانى ينظر إليه من جانب المسلمين على أنه نفاق صرف . وفى كتابات

المتشددين المسلمين تقلب هذه التهمة أيضا وتوجه إلى الغرب . ويتم تبرير ذلك فى أغلب الأحوال بحقائق تاريخية محددة ، بداية من الحروب الصليبية ، ومرورا بالقضاء على المسلمين واليهود فى أسبانيا وطردهم منها ، وعبورا بمحاكم التفتيش ، حتى عصرى الاستعمار والانتداب ، وانتهاء بتأسيس دولة إسرائيل (التى ينظر إليها على أنها وليد الاستعمار الغربى الحديث) وسياسة الاقتصاد العالمى التى توصف بأنها استغلالية وإمبريالية ، والتى يمارسها الغرب بمساندة بعض الحكومات المطيعة فى الشرق الأوسط تحت الشعار المتداول : البترول . كذلك فإن التدخل المستمر فى الشئون الإسلامية أو العربية الداخلية ، مع إدعاء الولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة على الكرة الأرضية برمتها ، والذى يمكن استنتاجه على أبعد تقدير منذ حرب الكويت – كل ذلك يفهم فى هذا السياق . وكون التهديد الجسدى للمسلمين من جانب المسيحيين مازال مستمرا بصورة عينية ملموسة فهو ما يقوم به الصرب فى الوقت الحاضر بممارستهم للتطهير العرقى فى البوسنة . وهى بالمناسبة حقيقة يحلو للصحافة العربية أن تنظر إليها على أنها فى الوقت الحالى آخر أعمال محاكم التفتيش .

إن مخاوف الغرب بأنه مهدد من قبل العالم الإسلامى ، وهى مخاوف يتم تشجيع ترويجها عن قصد ، تقابلها مخاوف الشرق الأوسط من التهديد المستمر من قبل الغرب . فإذا استعرضنا تاريخ القرن العشرين بالذات والظروف السياسية الخاصة بسياسة القوة ، سنجد أن الخوف فى الحالة الثانية له ما يبرره ، لأن التهديد فيها حقيقى . ويصاحب الإحساس بالتهديد المادى إحساس آخر قوى بالتهديد من قبل الثقافة الغربية . ويقابل الوهم الغربى القائل بعدم عقلانية الشرقيين . وهم المتشددين الإسلاميين القائل بالانحطاط الروحانى للغرب . وهنا يتم التفريق بوضوح بين الاكتشافات الخاصة بعلوم الطبيعة من ناحية – والتى لا ينظر إليها ، إلا باعتبارها امتدادا منطقيا للمعارف

والعلوم التى ورثها الغرب عن عرب القرون الوسطى ، وهى اكتشافات يقبلها المسلمون ولا يعترضون عليها – ومن ناحية أخرى بين الفكر المادى الصرف الذى يُنظر إليه على أنه فكر « منحط » وليس دينيا ، بل إنه ضد الدين وما يتبع ذلك من الإعلان عن انحلال المعايير الأخلاقية فى الغرب . ويعبر كل من عالج هذه الموضوعات – على الأقل بين السطور – عن الخوف من فقدان الهوية الحضارية .

يقول المستشرق الألمانى :

بجانب عدوانية الإسلام ، تحتل مكانة المرأة فى المجتمعات الإسلامية مقاما متميزا فى برنامج الغرب الخاص بصورة العدو الوهمى . وهذه أيضا فكرة نمطية ثابتة تعود جذورها إلى القرون الوسطى ، بيد أن بعض مظاهرها قد تغير كلية فى تلك الأثناء . فقد نتج عن التصورات الإسلامية الخاصة بالجنة . وما فيها من حور العين ذوات البكارة الأبدية ، وكثرة زوجات النبى ﷺ والحق الشرعى لكل مسلم فى الزواج من أربع نساء – أن القرون الوسطى المسيحية صورت الإسلام على أنه الوليد الشهوانى للشيطان .. ومحمدا ﷺ على أنه وحش جنسى آثم . وهكذا كتب فى نهاية القرن الحادى عشر رئيس كاتدرائية مدينة ماينتس فى ألمانيا – ايمبريخو يقول : إن المسلمين يحتفلون : « بجميع أشكال الزواج التى تحرمها الشريعة الإلهية ولأنهم جردوك أيها الطبيعة ، من حقوقك غصبا – تسعى المرأة إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها ، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله . بل خلافا للتقاليد . يجامع الشقيق شقيقته ، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يضاجعها أخوها الشيطان . الأبناء يهتكون عرض أمهم . والبنت تغتصب أباها . وكل ما هو محبب على هذا المنوال ، كانت الشريعة الجديدة (الإسلام) تحلله » . نظرا لمثل هذه الكتابات السطحية الوضيعة ، لا يستطيع المرء أن يتخلص من الإحساس بأن هؤلاء الكتاب قد أرادوا إشباع تخيلاتهم الجنسية الشاذة من ناحية ، وسعوا من

ناحية أخرى إلى صرف الأنظار عن أوضاع معينة موجودة بالفعل فى الغرب المسيحى . بما فى ذلك الأديرة المسيحية ، أو أنهم أرادوا توجيه الموعظة إلى الآثمين فى المجتمعات الغربية . وبالرغم من أن الإسلام لم يعد يتصدر تصوراتنا العدائية كمركز للدعارة الجنسية والفجور فى المقام الأول ، فإن لفظ « حريم » مازال يلعب دورا محدودا فى هذا السياق . وكون نظام الزوجة الواحدة هو القاعدة وتعدد الزوجات هو الاستثناء فى العالم الإسلامى ، فهذه حقيقة لم تتمكن من التقليل من هذه الأفكار الخاطئة ، تماما مثلما لم تقلل الإباحية الجنسية الموجودة بالفعل فى الغرب من تلك التصورات المشوهة عن الإسلام . وبالرغم من ذلك فلم يعد موضوع تعدد الزوجات هو أهم النقاط التى يهاجمها الغرب . إذ احتل مكانه الفكرة النمطية الثابتة الخاصة باضطهاد المرأة فى المجتمعات الإسلامية . إن الرواج المنقطع النظير الذى حققه كتاب بيتى معمودى « Betty Mahmoody وفيلمها « ليس بدون ابنتى » – يرينا على أى تربة مخصبة بالأوهام وقع ذلك العمل الدنىء المشحون بالأقوال العنصرية .

وهنا أيضا لا أستطيع أن أتخلص من الانطباع بأنه من خلال تقديم الزوج المسلم المعتدى على زوجته كقاعدة يريد الغربيون أن يجعلوا مثلا من وجود « بيوت النساء » المخصصة للزوجات المعتدى عليهن فى الغرب المسيحى نسيا منسيا . وحتى لايُساء فهمى : فليس قصدى هنا هو الدفاع عن البنى الأبوية فى المجتمعات الإسلامية ، ولكن هدفى هو أن أوعّى وأوضح أن توظيف وضع المرأة المسلمة فى خلق صور مكررة ومبتذلة للعدو ، يبدو أنه يهدف فى الغالب إلى صرف الأنظار عما يقابل ذلك من العيوب الذاتية القائمة فى الغرب .

كذلك فإن الوهم الغربى الخاص باضطهاد المرأة فى الإسلام أو التعصب

المفرط للرجال ضد النساء المبنى على تفوق الرجل على المرأة والذى يظهر بوضوح فى أنظمة الحريم ، له ما يقابله بصورة معاكسة فى تصورات المتطرفين الإسلاميين للغرب كعدو ، حيث تصور المرأة فى الغرب على أنها مستغلة ، أو مسخرة جنسيا . وحق المرأة أن تسير فى الشوارع شبه عارية . لا يقوَّم من وجهة النظر هذه على أنه حرية شخصية ، ولكن ينظر إليه باعتباره إذلالا وتحقيرا للمرأة ويُوسم البغاء ، والمجلات والأفلام الجنسية على أنها سمات إنحطاط أخلاقى . بهذه الصورة عن دور المرأة يتم الربط بوثاقة وإحكام بين إنهيار البنى الأسرية وعزلة الإنسان فى الغرب وتبرز هذه الحقيقة على الأقل كأحد أسباب تعاطى المخدرات وارتفاع نسبة الانتحار فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . وكما أن الحجاب قد أصبح بالنسبة للغرب رمزا لاضطهاد المرأة فى العالم الإسلامى ، فكذلك صار المتشددون المسلمون ينظرون إلى الملابس المثيرة للشهوة الجنسية على أنها رمز لإهانة المرأة ، وجعلها أداة للمتعة فى الغرب . كلتا الاستراتيجيتين لكى يحمل كل طرف الطرف الآخر تهمة .

هذه رؤية وشهادة باحث غربى يحاول أن يقول الحقيقة فى عالم أصبح من الصعب أن تقال فيه الحقيقة عن الإسلام . وهناك ما هو أكثر عداوة من كل ما نتصور ..

ففى كتاب بعنوان « محاصرة .. وإبادة : موقف الغرب من الإسلام » للدكتورة زينب عبد العزيز أستاذ الأدب الفرنسى بجامعة القاهرة مواقف عدائية تفوق التصور .. وعلى سبيل المثال :

الأب جيوم رينال يقول صراحة : « لا يوجد ما هو أكثر تكبيلا للحرية من الإسلام » .. !

وهولباخ فى كتاب معروف بعنوان « الأخلاق العالمية » يقول : « لقد

ظهر محتال فى بلاد العرب ، ارتجل الأكاذيب باسم السماء ، واستطاع أن يفرضها على عشيرته ، وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة ، وانتشرت بالسلاح فى آسيا وأفريقيا وأوربا ، إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح ، وهى تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامى على أنقاضها » ..

وفى قاموس الفنون والعلوم تعريف للإسلام يقول : « الإسلام دين أتى به محمد .. كان شديد الذكاء بحيث تعلم العهد القديم والعهد الجديد ، وتخيل منهما ديانة أقامها نقلا عن ظهر قلب ، وقسمها إلى مائة وأربعة عشر فصلا (يقصد سور القرآن الكريم) مليئة بالروايات والأكاذيب (!) .. والوعد فى هذا الكتاب لمن يقرؤه ألف مرة حورية فى الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح » (!!)

وفى كتاب الأب ميشيليه « تاريخ فرنسا » الجزء الرابع وصف للإسلام يتضمن هذه الصورة الغريبة : « اختبأت المرأة فى الحرملك .. وسمح بأربع زوجات وأقر محظيات بغير عدد » .. !

والفيلسوف الفرنسى بونو دى كونديلاك يقول عن الرسول ﷺ : « لقد كون مشروعه بمحض المصادفة ، وبفضل جرأة احتياله استطاع أن يتمه ، لأن الظروف ساعدته على ذلك .. كان مصابا بالصرع ، وذات يوم فاجأته زوجته فى إحدى النوبات ، وتخيلت أنه فى حالة وجد .. واستغل محمد سذاجتها وأكد لها أنه يرى الرؤيا ، وأن الله يحدثه خلالها عن طريق الملاك جبريل ، وقامت زوجته بنقل ذلك لنساء أخريات معلنة أن زوجها نبى ، وانتشر الخبر ، وتراكمت النبوءات ، واتبعت الجماهير ذلك الرجل الملهم الذى أقنعهم بخصوبة خياله (!) .. » قبل ذلك وفى عام ١٦٧٤ كتب الأب لويس موريرى فى « القاموس التاريخى الكبير : « محمد نبى مزيف ، عربى الموطن ، دفعه الفقر ليخدم عند أحد التجار العرب ، وعند وفاة هذا التاجر

قام بإمتاع أرملته المسماة خديجة « كاديج » لدرجة أنه تزوجها وأصبح ورثيها الوحيد ، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته ، وبعد ذلك شارك كل من باتيراس وهو هرطقى يعقوبى ، والأب سرجيوس وهو راهب نسطورى ، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع القرآن ، وبذلك أصبح دينه مكونا من جزء من اليهودية ، وجزء آخر من أحلام هرطقية ، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة .. (!) » .

وإذا رأينا هذا الكلام غريبا لا يمكن تصديقه ، فهناك ما هو أغرب منه . مثل كلام الأديب الفرنسى بيير بيل فى القرن الثامن عشر فى « القاموس التاريخى والنقدى » : « إن الملاك جبريل علم محمدا وصفة تمنحه قوة فائقة للاستمتاع بالنساء .. وعندما أكل منها أول مرة هزم أربعين رجلا ، ومرة أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب .. ! » .

* * *

وأغرب من ذلك ما قاله أحد المتخصصين فى العلوم الإنسانية فى فرنسا فى عام ١٦٣٢ فى كتابه « التاريخ العام للأتراك » : « إن محمدا الغارق فى الملذات المنحرفة ، لم يخجل من أن يقول فى قرآنه : إن الله قد حباه بقوة أربعين شخصا .. وبما أن محمدا لم يكن بوسعه أن يقدم معجزات الأنبياء فقد استعان بالخدع والخرافة ، وكان يجمع الناس ليشاهدوا روح الله تنزل عليه ، وكانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان قرب منكبيه وتلتقط الحب الذى كان يضعه لها فى فتحة أذنه موهما العرب أنها كانت تملى عليه كلمات الله وشريعته .. » !

ولشدة الحملة على الإسلام ورسوله حاول أحد الباحثين تفسيرها .. الباحث هو شانتال دراجون والكتاب بعنوان : « عرب ، هل قلت عرب ؟ »

صدر فى عام – ١٩٩٠ ويقول : « إن صورة الإسلام هذه تطورت أساسا بدافع من الكنيسة بعد الحروب الصليبية ، ولم يتعرض لها أحد فيما بعد ولم يناقضها أحد ، بل ظلت هى الإطار المرجعى الوحيد الذى تنهل منه الفلسفة والآداب حتى مطلع القرن التاسع عشر » .

تشويه صورة الإسلام فى الغرب استمرت منذ القرن الثانى عشر حتى اليوم .. وشارك فيها مئات من المستشرقين وعلماء الإلهيات والفلسفة والتاريخ والأدباء ورجال الدين ..

بعض الذين ادعوا فى العصر الحديث أنهم يدرسون الإسلام بموضوعية وحياد كانوا أشد عداوة من أعدائه فى القرون السابقة .. مثال ذلك الأب جان كلود بارو فى كتابه « الإسلام والعصر الحديث » الذى صدر فى باريس عام ١٩٩١ الذى يبدأ بالإشارة إلى المكانة التى أصبح يحتلها الإسلام فى الساحة العالمية وفى فرنسا بصفة خاصة ، ثم يتحدث عن كذب « الأسطورة الذهبية » التى تقول : إن الإسلام دين تقدمى ، وإنه دين تسامح ، ويسخر من الزعم بأن الإسلام أنجب حضارات كبرى ..

ويقول جان كلودبارو أيضا : إن فكرة وجود أمة عربية ليست إلا خرافة .. ويضيف : إن القرآن أقل بكثير من الكتب الدينية الأخرى كالإنجيل ، أو حتى الإلياذة ! وينتهى فى كتابه إلى أن القرآن كتاب شديد الملل ، والإسلام دين سياسى قائم على السلاح (الجهاد) وليس على العبادة والتأمل .. وهو ضد أى تقدم .. وضد حقوق الإنسان وحقوق المرأة .. ثم يوصى الحكومة الفرنسية بأن تعيد تعليم الملايين الثلاثة من الفرنسيين المسلمين .. لإزالة الخرافات الإسلامية من أذهانهم .

ولكى تكتمل الحلقات فى تزييف صورة الإسلام فى الغرب فإن ترجمات

القرآن التى قام بها المستشرقون مملوءة بالمغالطات والأكاذيب ، ولكنها تؤثر فى عقول الغربيين وتكوّن رؤيتهم لهذا الدين وأهله . والدكتورة زينب عبد العزيز تستعرض الأكاذيب فى هذه الترجمات منذ أول ترجمة للقرآن فى القرن الثانى عشر ، وكان هدفها فى البداية تقديم نماذج العداء للإسلام وإدانته فى الغرب وليس فهمه والتعرف عليه كما هو ، وكأن الهدف هو « غسيل مخ » الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام وتم تنصيرهم حديثا ، حتى أن ترجمة القرآن التى قام بها المستشرق الألمانى نولديكة يبدؤها بقوله إن هذا القرآن من صنع محمد وهو « صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الأسلوب » .. وبعده كان المستشرقون يحرصون على إظهار الموضوعية فى حديثهم عن الإسلام والاكتفاء بالتشكيك فى صدق القرآن بالتشكيك فى عملية جمعه وتصنيفه ومدى سلامة مصحف عثمان (!) حتى يعبر عن هذا الاتجاه فى مطلع القرن العشرين اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » عام ١٩٠٨ : « إن القرآن هو المسئول عن تأخر مصر وتخلفها عن الحضارة الحديثة » ..

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى ترجمة جاك بيرك المستشرق الفرنسى المشهور للقرآن وفى مقدمتها التى استغرقت ٨٢ صفحة يحرص جاك بيرك على التشكيك فى نزول وترتيب وتجميع القرآن ، والقول بتأثر القرآن بالشعر الجاهلى وبالفكر اليونانى القديم ومزامير داود ، واحتواء القرآن لعدد من الأساطير ، وتقديمه صورة « فظيعة » عن الله .. وحديث جاك بيرك عن غموض الأحكام فى القرآن الذى جعل المفسرين القدماء يكملون النقص من مذاهب أخرى ، وقوله بأن الشريعة الإسلامية فيها تناقض ، واتهام المفسرين بإلغاء بعض الآيات ، أو تحريفهم لمعناها ، مع إصرار غريب على تكرار القول بأن القرآن تأثر بالفكر اليونانى ، وانفصال العقيدة عن الحياة ، ومعاداة الإسلام

للتقدم العلمى والتكنولوجى . وللدكتور محمود حمدى زقزوق أبحاث كثيرة فى تحليل هذه الظاهرة .

* * *

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى أن « الكذب التاريخى » هو الحقيقة الوحيدة ، وأن من أهم قضايا القرن العشرين قضية « اغتيال الشعوب » على الرغم من أن الديانة المسيحية تنص صراحة فى وصاياها : « ولن تقتل أبدا » لأنه لا يجوز قتل مخلوق من مخلوقات الله وجزء من نوره ، إلا أن تاريخ الغرب مثقل بأنهار من دماء القتلى التى انسابت باسم الدين حينا . وباسم التطهير العرقى حينا آخر ، وكلاهما باسم الرب الذى حرم القتل ! ولا يكفى سرد مجازر الحروب الصليبية ، أو الإبادة الجماعية التى قام بها الاستعمار الغربى ، وحتى ما حدث فى البوسنة ، وقبله فى أسبانيا من عملية إبادة وحشية للمسلمين وللإسلام .. وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى كتاب « فى دهاليز الفاتيكان » صدر عام ١٩٨٣ من تأليف جوردون توماس وماكس مورجن ويت وفيه حديث عن البابا يوحنا بولس الثانى بأن محاصرة الإسلام والمسلمين سوف تتم قبل نهاية القرن العشرين ..

ولكن الدكتورة زينب عبد العزيز تشير فى نفس الوقت إلى كتاب مهم ألفه الأب ميشيل ليلونج عضو جمعية الحوار الإسلامى التى أنشئت فى باريس عام ١٩٩٢ ، والكتاب بعنوان « ما أنزل الله » وفيه يطالب المسيحيين بأن يتخذوا موقفا يتسم باحترام المسلمين وعقيدتهم ، ويقول : لقد كنا نتحدث عن الإسلام والمسلمين بسطحية وبصورة غير عادلة ، ويتحدث عن مخاوف البعض من أن يؤدى احترام عقيدة الإسلام إلى التأثير فى نشاط المبشرين الذين هم رسل الإنجيل ، ويناقش الكاثوليك والبروتستانت الذين مازالوا يحتفظون بأفكار خاطئة مسبقة عن الإسلام كاستمرار للموقف العدائى المتوارث من

القرون الماضية ، ولا يجدون جدوى للحوار المسيحى – الإسلامى ، وهذا الحوار « يثير قلقا فى الأمة اليهودية » كما يقول الأب ميشيل ليلونج ويقول أيضا : « إن نبى الإسلام قد أسئ الحكم عليه لفترة طويلة من المسيحيين ، وقدموه بصورة سلبية بحتة وعدوانية ، ويشهد على ذلك مع الأسف ذلك الكم الهائل من المؤلفات الغربية .. ولقد حان الوقت ليحدث تغيير عميق فى وجهة النظر الغربية ، وقد بدأ ذلك أثناء المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد فى فبراير عام ١٩٧٦ فقد قام المتحدث الرسمى للوفد الكاثوليكى بالاعتذار رسميا لممثلى الأمة الإسلامية عن الجور البالغ الذى ارتكبته الكنائس المسيحية منذ قرون للإسلام والمسلمين » ..

ويحدد الأب ميشيل ليلونج موقفه بوضوح ويقول : « إذا كنا ندين بالمسيحية فلا يمكننا أن نشارك المسلمين إيمانهم بالنبى محمد ، ولكن إذا كنا مسيحيين حقا فإنه يجب علينا أن نتخذ موقفا محترما حيال الإسلام ورسوله .. موقفا قائما على المعطيات التاريخية الموضوعية » ..

* * *

المشكلة أن هناك أجيالا فى الغرب شبت على كره الإسلام أو التخوف منه بسبب حملات التشويه المستمرة منذ قرون والتى استخدمت كل الوسائل .. القواميس والموسوعات .. كتب ودراسات التاريخ والعقائد .. الأدب والقصص .. الفنون والسينما .. ووصل الأمر إلى حد إغفال ذكر سيدنا إسماعيل من بين أبناء إبراهيم عليه السلام .. ففى انجيل متى « ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم . إبراهيم ولد اسحاق ، واسحاق ولد يعقوب .. الخ .

كان عداء المسيحية للشيوعية محوره أن الشيوعية قائمة على الإلحاد

والمادية .. فهل يمكن أن يمتد العداء إلى الإسلام وهو دين يؤمن بوجود الله .. وكيف يمكن فهم الدعوة التى وجهها كاتب كبير مثل جاك ديكورنوا إلى البابا يوحنا بولس الثانى لكى يقود حملة صليبية جديدة ضد الإسلام ، خاصة بعد أن تمت السيطرة دينيا على أمريكا اللاتينية ، وسحق الشيوعية ، فلا يبقى أمام البابا إلا توجيه المد الكاسح إلى الأصوليين الإسلاميين ليقوم بعدها بمهمته الأخيرة ، وهى دمج الكنائس المسيحية جميعها تحت لواء روما الكاثوليكية .. وهذا هو ما جاء فى مقال نشرته صحيفة الموند ديبلوماتيك المعروفة .

أليس غريبا ألا تعترف الكنيسة بإسماعيل ، الابن البكر لسيدنا إبراهيم ، لأنه جد العرب ، ولا تعترف بالسيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم ، وتتهمها باتهامات لا تليق ، وغريب ألا تتحرك الكنيسة تجاه العدوان القائم على الإسلام بالربط بينه وبين الإرهاب لمجرد أن هناك جماعات إرهابية من المسلمين مع أن هناك عشرات الجماعات الإرهابية أعضاؤها مسيحيون ويهود وبوذيون .. ولم يقل أحد : إن هذه الديانات ديانات إرهابية ..

والغرب الآن يشعر بالتخوف من الإسلام بعد أن نجحت الحملة الإعلامية فى بث الرعب من مفهوم « الجهاد » فى الإسلام على أنه يعنى أن الدين الإسلامى يفرض على أتباعه أن يحملوا السلاح ، وأن يحاربوا كل من يخالفهم فى العقيدة ، لإخضاع العالم وإكراهه على الدخول فى الإسلام بالقوة ، وإذا لم تكن الحرب الإسلامية المنظمة متاحة فى هذا العصر ، فإن « الإرهاب » هو البديل الإسلامى المطروح لزلزلة المجتمع الغربى وتهديد أسس الحضارة الغربية .. ويعبر عن هذه المخاوف جراهام فوللر وايان ليسر الأمريكيان فى كتابهما « الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة » ، فيتحدثان عن نظرية الإسلام فى تقسيم العالم إلى « دار الإسلام » و « دار الحرب » أى أن كل بلد ليس إسلاميا هو دار حرب يجب أن يغزوه المسلمون ، وعلى الإسلام أن يظل

فى حالة حرب مستمرة .. ويقول الباحثان الأمريكيان : إن هناك زعماء متطرفين حالمين هدفهم نظريا التوسع ونشر الإسلام فى كل أنحاء العالم ، ولكن الهدف الأكثر إلحاحا عند جميع رجال الدين الإسلامى الآن هو الحفاظ على الإسلام وتنقيته داخل العالم الإسلامى ، فالإسلام لم يعد عقيدة غزو وتوسع ..

* * *

فى الغرب هناك من يقول : إن مفهوم « الجهاد » فى الإسلام هدفه « الجهاد ضد الغرب » ليؤسس نظرية تقول : إن الإسلام دين عدوان ، وإنه خطر على الحضارة الغربية ، وإن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، وإذن فإن القضاء على الإسلام الآن أفضل من الانتظار إلى أن يقوى التيار العدوانى الإسلامى ويتمكن من القضاء على الغرب .. !

نظرية غريبة .. ليس لها أساس إلا فى أوهام وخيالات أصحابها .. وهى – على أى حال – تعبير عن رغبة فى إيجاد مبرر للعداء للإسلام وللحديث عن « حرب دفاعية » ضد العالم الإسلامى ..

لا أحد فى العالم الإسلامى يقول : إن « الجهاد » هو إعلان الحرب على الديانات الأخرى .. وعلى الغرب ..

المسلمون يرددون فى صلواتهم أوامر الله : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ .. ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .. ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .. ﴿لكم دينكم ولى دين ﴾ ..

وأكثر الباحثين فى الغرب يعرفون ذلك .. ولكنهم يعرفون الحق ويكتمونه ..

لأن هناك مصالح سياسية واقتصادية تجعل الصدام بين الدول الكبرى والدول الصغرى محتوما .. ومادامت الدول الكبرى الآن هى الغرب .. وأهم الدول الصغرى التى تؤثر فى قلب المصالح الغربية هى الدول الإسلامية ، فإن الصراع السياسى والاقتصادى يتخفى وراء الأقنعة الدينية .. وما أسهل استغلال بعض ظواهر الانحراف من جماعات الإرهاب والجريمة لتصويرها على أنها المعبرة عن حقيقة وجوهر الإسلام ..

وصناعة تزوير التاريخ ، وقلب الحقائق ، والتضليل الإعلامى ، صناعة غربية وصلت إلى قمة التفوق دون منازع . !

أسطورة أم حقيقة

ما العمل أمام مخاوف الغرب من الإسلام .. ؟

هل نتجاهل الموضوع ، أو نقلل من أهميته ، أو نأخذه مأخذ الجد .. ؟

موقف العالم الإسلامى حتى الآن مازال يتأرجح بين التجاهل والتهوين من خطورة المسألة ، بينما العالم الغربى يأخذ المسألة بمنتهى الجدية .

يكفى أن نقرأ كتابا مثل « الخطر الإسلامى : أسطورة أم حقيقة » الذى ألفه جون اسبوسيتو وأصدرته جامعة أكسفورد بنيويورك ، ويناقش فيه الرأى السائد فى الغرب من أن الحرب بين الشيوعية والغرب سيحل محلها الحرب بين الغرب والمسلمين .. ويتساءل فى أول سطر من الكتاب : هل الإسلام والغرب فى طريقهما للصدام الحتمى .. ؟ وهل يتعارض الإسلام – حقا – مع الديمقراطية .. ؟ وهل صحيح أن الأصولية الإسلامية تهدد استقرار العالم الإسلامى ، وتهدد مصالح أمريكا فى المنطقة .. ؟ ويقول إن هذه التساؤلات محرجة ، ولكنها نبعت من تاريخ حافل بعدم الثقة والاتهامات المتبادلة .. وخاصة أنه بعد ظهور الخمينى وصدام حسين ، أصبحت الحكومات الغربية ووسائل الإعلام مجمعة على أن الإسلام يمثل تهديدا للغرب ، وأصبحت صورة الإسلام فى الغرب أنه دين يعلن الحرب على من يخالفه ، ويعادى الغرب ، ويسعى إلى إعلان الحرب على العالم الغربى وحضارته . وهذه الصورة الغالبة الظاهرة فى الساحة الآن جعلت الجذور والمعتقدات الدينية المشتركة بين الإسلام والمسيحية تتوارى ، ولم يبق فى العقل الغربى إلا أن المسلمين هم الذين حاربوا وهزموا الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى ، وهم الذين قاتلوا وهزموا فى النهاية الصليبيين ، والإمبراطورية العثمانية كانت أكبر

تهديد واجهته أوربا فى تاريخها ، وأن الغربيين هم الذين طردوا المسلمين من أسبانيا ، وهم الذين قادوا التوسع الأوربى الاستعمارى ، وأقاموا إسرائيل ، وفى السنوات الأخيرة فإن « الإسلام المقاتل » العدوانى هو الذى يظهر أمام الغرب .. ابتداء من الهجوم على السفارات الغربية ، واختطاف الطائرات ، واحتجاز الرهائن الغربيين ، وأعمال العنف التى تقوم بها جماعات تحمل أسماء : حزب الله .. الجهاد .. الناجون من النار ..

والآن فإن الإسلام هو أعظم القوى انتشارا فى العالم ، حيث يبلغ عدد المسلمين حوالى الف مليون مسلم ، ويمثل المسلمون الأغلبية السكانية فى خمس وأربعين دولة ، تمتد من أفريقيا إلى جنوب شرقى آسيا ، والمسلمون الآن موجودون بشكل ملحوظ فى الولايات المتحدة ، وأوربا ، وجمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق .. فالإسلام يبدو أمام الغرب قوة ايديولوجية تشمل خمس سكان العالم .. ويبدو أيضا « امبراطورية شريرة » فى حالة حرب مع النظام العالمى الجديد ، وفى صحف الدول الإسلامية والأوربية تظهر مقالات مثيرة تحمل عبارات مشئومة مثل : « مازالت الحروب الصليبية مشتعلة » أو « الهلال الجديد فى ورطة » أو « الانتفاضة الإسلامية العالمية » أو « الإسلام الصاعد يمكنه أن يقهر الغرب ، أو « جذور الغضب الإسلامى » ومثل هذه العبارات تلقى اهتماما من العامة ، ولكنها تؤدى إلى تكوين صورة عن المسلمين على أنهم من البدو الذين يمتلكون الحريم ، عاطفيون ، وغير متعقلين ، يتميزون بالتعصب ، والعنف ، والتهور ، واضطهاد المرأة .

* * *

وفى رأى جون اسبوسيتو أن بعض الأمريكيين الذين يبحثون عن عدو جديد بعد انتهاء الشيوعية لكى تختبر أمريكا فيه قوتها ، يجدوا فى الإسلام الخصم المفضل ، وإن كان ذلك يعد إعلانا لحرب باردة جديدة ، ليس من

المرجع أن تنتهى بنفس الانتصار الباهر الذى حققته أمريكا فى الحرب الباردة السابقة .. !

لذلك فهو يحذر من أن يحل الخوف من الخطر الأخضر (رمز الإسلام) محل الخوف من الخطر الأحمر (رمز الشيوعية العالمية) ويحذر من المضى فى نشر الفكرة التى تقول : إن الإسلام هو التحدى ، وهو الخطر الكامن للدين المسيحى والغرب .. ويتساءل اسبوستيو بعد ذلك : هل الخطر الإسلامى أسطورة أو حقيقة .. ؟

ويشير فى كتابه إلى معالم يرى أن لها أهمية فى فهم « الخطر الإسلامى » ويقف عند حرب أكتوبر ١٩٧٣ والثورة الإيرانية .. ويرى أن كلا منهما يمثل نقطة تحول نبهت الغرب إلى وجود قوة فعالة جديدة تهدد المصالح الغربية ، بعد أن استعان رؤساء الدول وزعماء حركات المعارضة بالإسلام لدعم شرعيتهم وضمان التأييد الشعبى مما أدى إلى تزايد المنظمات الإسلامية .. ففى حرب ٧٣ شن السادات الحرب على إسرائيل تحت راية الإسلام ، وشجع الانتصار النسبى المسلمين على اعتبار هذه الحرب انتصارا للإسلام .. بينما خاض عبد الناصر حرب ٦٧ باسم القومية العربية والاشتراكية ولم يرفع راية الإسلام .. ! وكانت المقاطعة النفطية العربية قوة ضاغطة جعلت الغرب يعترف لأول مرة باعتماده على الشرق الأوسط وتعرضه للإفلاس والموت إذا انقطع عنه شريان الحياة من البترول الذى يأتى إليه من بلاد إسلامية . وبالنسبة للكثيرين فى العالم الإسلامى كانت هذه إشارة لعودة قوة الإسلام .

وكانت ثورة الخمينى صدمة للغرب .. كان الشاه قد جعل إيران أكبر حليف للولايات المتحدة ، وجاءت هذه الثورة باسم الإسلام تعلن الحرب ضد الشاه ، وضد الغرب ، ووقف الغرب مذهولا أمام ذلك التحدى لتطوير

الشاه « العصرى » لدولته المتخلفة ، وصعود قوة « غير متعقلة ترجع جذورها إلى قرون مضت ، وتهدد بإعادة إيران الحديثة إلى العصور الوسطى » وتسعى إلى تصدير الثورة إلى سائر الدول الإسلامية ، حتى أن الخمينى جمع عناصر من قادة الحركات الإسلامية فى ٤٠ دولة إسلامية ودعاهم إلى تحويل مساجدهم إلى قواعد عسكرية وثقافية للإعداد لتكوين حكومات إسلامية فى جميع الدول .

وأعلن الخمينى الحرب على العراق .

وهدد دول الخليج .

وكانت « الثورة الإيرانية » هى المحركة لمظاهرات مواسم الحج ، واضطرابات الكويت والبحرين عام ١٩٨١ ، ثم أرسلت فصيلة من الحرس الثورى الإيرانى إلى لبنان لتطوير حزب الله وتنظيم الجهاد ، وامتدت أصابعها إلى كثير من الدول الإسلامية .

على الجانب الآخر فإن التاريخ جعل المسلمين يمثلون تهديدا للمسيحية الغربية كما يقول ماكسيم رودنسون المستشرق الفرنسى المعروف . فقد أدت أوجه التشابه الدينى بين المسيحية والإسلام إلى طريق امتلأ بالتضارب بين العقيدتين .. فقد اعتقدت كل جماعة منهما بأن ميثاقها مع الله ، جاء تحقيقا لرسالته السابقة ، وبأن رسالتها ورسولها يمثلان ختام الرسالات والنبوة ، وكان للمسيحيين مكان التفوق ولم يواجهوا إلا مشاكل قليلة فى تنازلاتهم تجاه اليهودية ، ولكن كان مثل هذا الموقف من جانب المسلمين تجاه المسيحية أمرًا مستبعدا ، والأكثر من ذلك كانت رسالة المسلمين تمثل تهديدا للدور الفريد ، والتفويض الإلهى الذى حصلت عليه المسيحية وجعلها الممثل الوحيد للرب ، والوسيلة الوحيدة للخلاص .. فالمسيحية والإسلام كلاهما يدعو إلى رسالة عالمية ، وكلاهما يمثل مجتمعا متعدد القوميات يقوم على عقيدة

مشتركة ، وكلاهما يرى أنه المثال الذى يجب أن يحتذى به سائر البشر ، وكلاهما يرى أنه الطريق لانتصار ملكوت الله ، ثم جاءت صفحات الصراع ابتداء من الفتح الإسلامى الذى أعلن انتصار الإسلام ، ثم الحروب الصليبية التى أعلنت انتصار المسيحية ، والحروب الصليبية فى ذاكرة المسلمين رمز للنزعة الحربية المسيحية ، ونذير مبكر لعدوانية وإمبريالية الغرب المسيحى ، ودليل قوى على عداوة المسيحية المبكرة للإسلام . وحين يتحدث المسيحيون عن الإسلام على أنه دين السيف ، يتحدث المسلمون عن الحروب الصليبية على أنها رمز للنزعة العدوانية باسم المسيحية ، ويمثل القرن الحادى عشر علامة تحول فى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى ، فقد كانت شعوب الغرب حتى نهاية القرن العاشر شعوبا فقيرة ، متخلفة ، يسودها الجهل وتتقاتل جماعاته المتوحشة . فى حين ظل الإسلام طوال أربعة قرون ينعم بالسلام والأمن الداخلى ، واستطاع بناء ثقافة وحضارة عظيمة ومؤثرة ... وبعد ذلك تحول الوضع بشكل درامى .. ازدهرت التجارة والمعاملات فى الغرب ، ونشأت المدن والأسواق وازداد السكان وانتشرت الفنون والعلوم .. وشن الغرب الخارج لتوه من العصور المظلمة هجوما مضادا لطرد المسلمين من أسبانيا وإيطاليا وصقلية والبحر المتوسط .. وفى ذات الوقت بدأ العالم الإسلامى يشهد مرحلة من النزاع السياسى والدينى .

وأثرت الحروب الصليبية فى صورة الإسلام فى الأدب والفكر الغربى .. وزاد من آثارها النزعة العنصرية الأوربية .. فسادت مفاهيم مشوهة عن الإسلام والمسلمين ، وتجاهل الغرب مساهمة الإسلام فى الحضارة الغربية ، وسادت عن الإسلام قصص خيالية امتزجت بتحريف العقيدة الإسلامية لكى تثير الكراهية « للعدو » . !

وحين بدأ عصر الإصلاح الدينى المسيحى بعد قرون من العداء ، كان

الإسلام هو الأداة التى يوجه إليها العداء فى الاحتفالات الدينية ، ورمزا للخطر والعداء للمسيح ، ورأى مارتن لوثر زعيم الإصلاح الدينى المسيحى أن الإسلام ليس إلا : « حركة عنف فى خدمة أعداء المسيح ، ولا يمكن تغيير طبيعة الإسلام لأنه منغلق أمام المنطق ، ولا يمكن مقاومته إلا بالقوة » .

وحين حكم الاستعمار الغربى العالم الإسلامى كانت رؤيته للإسلام على أنه فاشل فى إقامة مجتمع متحضر لأنه يضع المرأة فى منزلة أدنى من الرجل ، ويسمح بالعبودية ، ونزعته العامة التعصب ضد العقائد الأخرى ، ولا يسمح بتطوير الفكر المنطقى ، وهكذا جعل الاستعمار الأوربى من الإسلام التحدى السياسى والدينى والتهديد الذى تجب مقاومته .. ومع تمزق العالم الإسلامى فى القرن ١٨ أصبح هدفا للإرساليات المسيحية التبشيرية التى حاولت تصوير المسيحية على أنها هى التقدم والحضارة وتصوير الإسلام على أنه التخلف والجهل .. وفى القرن الـ ١٩ وجد المسلمون أنفسهم فى حالة دفاع عن النفس فى مواجهة الاستعمار الأوربى ، ومع بداية القرن العشرين وظهور حقيقة الاستعمار والامبريالية الأوربية فى تمزيق خريطة العالم الإسلامى .. الفرنسيون فى شمال وغرب أفريقيا وفى أفريقيا الاستوائية وفى لبنان وسوريا .. والبريطانيون فى فلسطين وشرق الأردن والعراق والخليج العربى ومصر وشبه القارة الهندية وجنوب شرقى آسيا والملايو وسنغافورة وبروناى .. والهولنديون فى أندونيسيا .. وحين احتفظ المسلمون بالسلطة فى تركيا وإيران ظلوا فى موقف دفاعى دائم ضد الأطماع السياسية والاقتصادية للبريطانيين والفرنسيين والروس .

ونتيجة لكل ذلك تعددت مواقف المسلمين من الغرب .. من الرفض إلى الإعجاب والتقليد .. لكن الصراع كان هو المناخ السائد .. وظهرت أوربا على أنها العدو الذى يهدد العقيدة الإسلامية والمجتمعات المسلمة ، وأصبحت

الأزمة السياسية الناتجة من الاستعمار الغربى أزمة روح ، ونبعت هذه الأزمة الروحية فى الإسلام فى القرن العشرين ، وساعدت سياسات القوى الاستعمارية على زيادة تصورات المسلمين عن الغرب الصليبى ، لأن تجربتهم مع الاستعمار الغربى كانت تمثل تهديدا للهوية والعقيدة الإسلامية ..

يقول جون اسبوسيتو : إن أوربا لم تأت إلى العالم الإسلامى بالجيوش والموظفين فقط ، ولكنها جاءت أيضا بالبعثات التبشيرية المسيحية ، وقال قادة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر مثلا : إن القساوسة كسبوا لنا قلوب العرب الذين أخضعناهم بقوة السلاح .. وقال كبير أساقفة الجزائر : إن مهمة الكنيسة هى تحويل العرب المسلمين عن رذائل دينهم من الكسل والطلاق وتعدد الزوجات والسرقة والتعصب .

وكان رد الفعل من الجانب الإسلامى على هذه الهجمة الاستعمارية فى طريقين : طريق الرفض والانسحاب .. أو طريق الرفض والمقاومة والمواجهة .. وظهرت الدعوة بين المسلمين للأخذ بالعلوم والأسلحة والأفكار الغربية الحديثة لمواجهة سيطرة الغرب .. وظهرت حركة التجديد الدينى على يد الأفغانى ومحمد عبده فى مصر ، ومحمد إقبال فى الهند ، ثم جاء طه حسين وهو من تلاميذ محمد عبده ليمثل تيار جيل جديد يؤمن بالليبرالية ، ويؤكد أن « جوهر ومنبع الإسلام هو جوهر ومنبع المسيحية ، ولا توجد خلافات فكرية أو ثقافية .

ولكن المشكلة فى أعماق العقل والغير وهى إسرائيل .. !

* * *

يقول جون اسبوسيتو : إن اقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كانت أجراً مثال على نفاق الاستعمار الأوربى ، ورغبته فى إبقاء العرب ضعفاء

ومنقسمين ، فقد كانت إسرائيل تعتبر مستعمرة أوروبية أمريكية فى قلب الأمة العربية ، وكانت هزائم العرب فى ٤٨ و ٥٦ إذلالا آخر ، ووجد القادة العرب فى الصراع ضد إسرائيل ما يصرف الانتباه عن فشل الأنظمة السياسية والقومية العربية ، واتفق العلمانيون والمتدينون والقوميون العرب والجماعات الإسلامية على أن تحرير فلسطين هو الجهاد الأكبر . وكانت القومية العربية عند عبد الناصر حركة سياسية وليس لها مضمون إسلامى ، ولكن فشل الحكومات والقومية العربية الذى جسدته مهانة حرب ٦٧ هى التى خلقت شعورا عميقا بخيبة الأمل ، أدى إلى الصحوة الإسلامية .. وحين أطلق خالد الاسلامبولى النار على الرئيس أنور السادات فى حدث أذهل العالم ، وفى أعقاب الثورة الإيرانية ، لفت أنظار العالم بشكل درامى إلى الإسلام الراديكالى .. وبدأت صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب تأخذ شكلا غريبا .

* * *

فى محاضرة القاها باحث أمريكى بارز هو الدكتور برنارد لويس فى جامعة جيفرسون عام ١٩٩٠ تحدث عن المسلمين على أنهم جميعا أصوليون متشددون وعن الإسلام على أنه خطر قائم ، ونشرتها مجلة « اطلنطيك » الشهرية مع صورة على الغلاف تمثل علاقة الغرب بالإسلام على أنها علاقة حرب وكراهية ، تصور مسلما ملتحيا عابس الوجه ، يضع عمامة على رأسه ، وتخرج من عينيه الغاضبتين أعلام أمريكا ، وفى الداخل رسم لثعبان عليه النجوم والخطوط التى ترمز للعلم الأمريكى يزحف فى الصحراء ممثلا للهيمنة الأمريكية وتهديدها للعالم العربى ، ورسم آخر لثعبان فى وضع انقضاض لمهاجمة أحد المسلمين الآمنين وهو يصلى .. والهدف هو القول بأن المسلمين يرون أن أمريكا هى العدو ، وأن المسلمين يعيشون بعقلية العصور الوسطى ..

ويقول اسبوسيتو : لماذا يتحدث الغرب عن باكستان وهى تحاول صنع

قنبلة نووية بأن هذه « قنبلة إسلامية » فهل يصفون القنابل النووية الإسرائيلية بأنها « قنبلة يهودية » أو القنابل النووية الأمريكية بأنها « قنبلة مسيحية » .. ؟

ويقول أيضا : إن مشاعر العداء ضد العرب والمسلمين فى أوربا هى جزء من جنون الخوف من الأجانب وكراهيتهم ، وقد أثارت بريطانيا جدلا حول قضية سلمان رشدى وحول تبرير رفض الحكومة البريطانية لتقديم دعم للمدارس الإسلامية بينما تقدم الدعم تلقائيا للمدارس الكاثوليكية واليهودية ! وتدعى الحكومة البريطانية أن المدارس الإسلامية « دون المستوى » كمبرر لعدم استحقاقها للدعم .. وفى فرنسا تصاعدت النداءات تطالب بطرد العمال الأجانب ، وصدرت قرارات بمنع التلميذات المسلمات من وضع غطاء رأس .. ودول الغرب عموما تعتبر المسلمين فيها غرباء دينيا وثقافيا .. ومثل انتشار فكرة أن أوربا القلعة المسيحية التى تنعم بالثراء تخاطر بالسماح للمسلمين بالهجرة إليها فتغامر بنشوء صراع ضد عالم إسلامى يغلب عليه الفقر والبؤس ، مما سيؤدى إلى انتشار الإرهاب ، وإلى حروب أخرى قد تستمر أربعين سنة .. !

يقول جون اسبوسيتو : إن ما نواجهه الآن بين الإسلام والغرب هو « صدام حضارات » ربما يكون رد الفعل اللاعقلانى لتاريخ من التنافس القديم .. ولكن المسألة ليست أن المسلمين متعصبون ، ولكن أن المسلمين يشعرون بالظلم ، والناس حين يتعرض وجودهم ومصالحهم للخطر فلابد أن ينفجروا غضبا ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ، أو من السيخ والهندوس .

ويقول : لماذا نقلل من شأن الإسلام .. ؟ ربما كان ذلك بسبب الجهل لأن ما يكتب بإنصاف وموضوعية عن الإسلام فى الغرب محدود .. ولأن وسائل الإعلام الغربية ترسم صورة مخيفة ومكروهة عن المسلمين ، وبعد أن

كانت صورة المسلم هى صورة البدوى وتعدد الزوجات والحريم أصبحت صورته الآن الإرهابى المدجج بالسلاح المحارب للغرب ..

ويُنظر فى الغرب إلى الإسلام على أنه ظاهرة ثابتة متحجرة عقائديا وثقافيا واجتماعيا وأنه دين يعادى الحداثة ورجعى ، وأنه دين يلغى العقل لأنه أغلق باب الاجتهاد منذ القرن العاشر .

ويتساءل اسبوسيتو : هل العداء للإسلام فى أمريكا يرجع إلى ما يعلنه الإسلاميون من العداء لأمريكا ؟ .. ثم يجيب بأن هناك كثيرين لا ينتمون إلى الجماعات الإسلامية يرون أن الولايات المتحدة معادية للإسلام ومنحازة لإسرائيل بشكل كامل ..

ثم يقول : إن المصالح الأمريكية ستكون فى أمان إذا انتهجت أمريكا سياسة تتسم بالاستقامة والتعاون واتباع سياسة علنية ثابتة وواضحة فيما يتعلق بحق المواطنين فى العالم كله فى تقرير مصيرهم .. (ومنهم الفلسطينيون طبعا !) .

وأخيرا يقول : على أمريكا والغرب فهم الإسلام والتعامل معه وفقا لمبادئ الحرية وحق تقرير المصير وتقدير أمانى الشعوب وإرادتها .. فهذا هو الطريق لتفادى الصدام . وفى النهاية فإن الخطر الإسلامى أسطورة أكثر منه حقيقة .

وليس أسبوسيتو هو الوحيد الذى نقب عن الجذور وفتح الملفات وحدد أسباب العداوة .

* * *

هناك أيضا من طرح نفس الأسئلة ولكن بشكل مختلف ..

الدكتور هانيس ديترفنتر سفير المانى سابق له خبرة بالإسلام والمسلمين ، أعد دراسة بعنوان « هل يشكل الإسلام السياسى خطرا على أوربا ، ترجمتها

صبحية فولف مشورب ، وهو يتحدث عن « الإسلام السياسى » باعتباره ايديولوجية تهدف للوصول إلى الحكم ، ولذلك لا يمكن بأى حال اعتبار الإسلام السياسى كايديولوجية هو الإسلام كدين ،وهذا الخلط هو الذى جعل الغربيين يرون أن الإسلام خطر عليهم .

يقول الدكتور هاينس ديترفنتر : إن هناك من يرى أن الغرب فى حاجة إلى عدو بعد زوال الخطر الشيوعى ، لأن استمرار وجود المجتع الليبرالى الغربى يحتاج إلى هذا العدو ، وهناك من يرى أن السبب فى هذه الفكرة هو أن مجتمعات العالم الثالث وخاصة المجتمعات الإسلامية تمر بأزمة فى تطورها .

ويتساءل الدكتور هاينس لماذا تحول النقاش عن الإسلام كصورة عدائية إلى موضوع يدخل ضمن خطط السياسات الأمنية الغربية فى السنوات الأخيرة ؟ وهل وجود توترات فى المنطقة الممتدة من المغرب إلى الخليج العربى يبرر الحديث عن الإسلام كعدو ، أو أنه خطر يهدد أوربا والغرب عموما .. ؟ وما هى الخطوات التى يمكن أن تقوم بها السياسة الأوربية للمساهمة فى القضاء على الإرهاب والتطرف .. ؟

يقول : إن من حق الغرب أن يستنكر أعمال الإرهاب التى تتم باسم الإسلام ،ويطالب بوضع حد لها ، ومن حق الغرب أن تزداد مخاوفه من أن يتحول إلى ساحة لمثل هذه الصراعات والأعمال الإرهابية ، وخاصة بعد ثورة إيران ، والحرب الإيرانية العراقية ، وعمليات الخطف التى قامت بها مجموعات إسلامية فى لبنان فى الثمانينيات ، ولكن اتساع المخاوف من الإسلام كعدو يهدد أمن الغرب ، فقد برز فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات لعدة أسباب : **أولها** التغيرات على الساحة الدولية بعد انتهاء المواجهة بين الشرق والغرب ، **وثانيها** العدوان العراقى على الكويت فى أغسطس

١٩٩٠ وحرب الخليج بعدها وكانت أول حرب ساخنة كبيرة بعد انتهاء الحرب الباردة ، وإذا كان انتهاء الحرب الباردة يعنى أن أوربا الشرقية لم تعد تشكل خطرا للغرب كعدو ، فإن حرب الخليج أظهرت أن تلك المنطقة الواسعة المناخمة لأوربا فيها احتمالات كبيرة للصراعات ، وبعد أن نجح صدام حسين فىندائه الديماجوجى إلى دعوة العالم العربى والإسلامى إلى شن حرب الجهاد ضد الغرب ، فقد وجد القادة العسكريون فى أوربا أعداء تهدد قارتهم ، وفى منظمة حلف شمال الأطلنطى ، كما فى جيش المانيا ، تتحدث الوثائق منذ عام ١٩٩٠ عن « الخطر القادم من الجنوب » وأهم هذه الوثائق تقرير صادر عن حلف شمال الأطلنطى يرى أن هناك خطرا يهدد دول أوربا من الحركات الإسلامية المعروفة بعدائها للقيم الغربية ، وقد كتب السكرتير العام لحلف الأطلنطى ، ما نفريد فورنر رسالة موجهة إلى الحلف عام ١٩٩٠ جاء فيها : « على طول الحدود الجنوبية لدول حلف الأطلنطى كتلة من التوترات تمتد من المغرب حتى الشرق الأوسط ، يتم استغلال وتصعيد هذه التوترات من متسلطين مثل صدام حسين ، وبالإضافة إلى ذلك تعانى هذه المنطقة من مشاكل اقتصادية متأصلة ستؤدى حتما إلى استمرار تزايد السكان ، وإلى نشوء صراعات على الموارد ، وإلى زيادة حدة التعصب الدينى والإرهاب .

فالسكرتير العام لحلف الاطلنطى يرى أن هناك علاقة بين الإرهاب والأزمة الاقتصادية فى المنطقة ، أما القائد الأعلى السابق للحلف جون كلفان فإنه يشير مباشرة إلى الإسلام على أنه الخطر القادم من الجنوب .. وأعلن رأيه هذا فى محاضرة القاها عام ١٩٩١ قال فيها : « لقد عرف هذا القرن أطول مواجهة بين الغرب والإسلام طالت أكثر من الف سنة ، واشتعلت منذ العصور الصليبية إلى العصر الحديث ، وبعد أن انتصر الغرب فىالحرب الباردة ، يعود الصراع أمام الغرب إلى محوره الرئيسى ، وهو المواجهة مع الإسلام ، والسؤال

هو : هل يستعيد التاريخ العسكرى الأوربى محوره الرئيسى الصحيح وهو المواجهة مع الإسلام بعد أن انشغل عنه منذ هزيمة الجيش التركى على أبواب فيينا عام ١٦٨٣ ؟ وهل سيوجه « سيف الإسلام » ضد أوربا .. مدججا هذه المرة بأسلحة حديثة لعلها « القنبلة الإسلامية النووية » التى يزداد الكلام عنها الآن ؟ .

يقول الباحث الألمانى الدكتور ديترفنتر إنه من الصعب التغاضى عن أقوال القائد الأعلى السابق لقوات حلف شمال الاطلنطى التى يتهم فيها أكثر من مليار مسلم فى العالم بأنهم أعداء محتملون للغرب ، ولا يمكن اعتبار مثل هذه الادعاءات ادعاءات هامشية ، فمثل هذه الآراء تلاقى انتشارا تدريجيا فى التفكير السياسى الغربى ، فقد جاءت نظرية صمويل هانتنجتون عن صراع الحضارات بعد ذلك بعامين وقال فيها : إن الصراع القائم فى السياسة الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة هو صراع بين الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات ، وعلى رأسها الإسلام وقد أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية تبرؤها من هذا الموقف لأنه يهدد المصالح العالمية للولايات المتحدة ، ولكن مع ذلك فإن مواقف مثل موقف القائد الأعلى لقوات حلف الاطلنطى السابق ، والباحث الأمريكى هنتجتون لها انعكاسات سلبية على علاقة الغرب بالعالم الإسلامى ، وتشجع التفكير العدائى ضد الإسلام فى أوربا ، لأنها تعتبر الإرهاب هو الإسلام كدين .

* * *

فى الغرب عداء للإسلام .. وفى العالم الإسلامى جماعات إرهابية لا تخفى عداءها للغرب ، ومعنى ذلك احتمال قيام صراع جديد ، وهذا ما جعل الرئيس حسنى مبارك يقول فى إحدى خطبه : « لا يريد المسلمون أبدا أن يُعاملوا كإرهابيين يمارسون العمل السرى فى النظام العالمى الجديد ،

بل إن المسلمين لهم مصلحة فى التعاون على قدم المساواة مع جميع دول العالم ، ولتحقيق ذلك يجب تصحيح الأخطاء ، وتحسين الصورة المشوهة عن العرب فى أعين العالم . إن الأعمال الإجرامية التى يقوم بها المتطرفون المسلمون تعزز الاعتقاد فى الغرب بأن الإسلام يشكل الخطر الجديد الذى تجب مكافحته بعد نهاية الشيوعية ، وللأسف فإن الغرب يكوِّن نظريته انطلاقا من نشاط هذه المجموعات دون أن يريد استيعاب أن الإسلام لا يشكل خطرا أيا كان ، وعندما تتحدث بعض الدوائر فى الغرب عن الإسلام باعتباره خطرا أو تهديدا ، فإنها بذلك تصب الزيت على نار المتطرفين ، الذين يعتبرون أن الغرب هو المسئول عن الفقر الذى تعانى منه الشعوب الإسلامية ، وهذا ما يلقى تجاوبا لدى المسلمين .

ولكن هل العنف والإرهاب لدى هذه الجماعات لأنها إسلامية أو لأسباب أخرى .. ؟ » .

* * *

المفكر الألمانى الدكتور هاينس ديترفنتر يفسر وجود جماعات العنف فى الدول الإسلامية بسبب الوضع الاجتماعى السياسى الاقتصادى لهذه الشعوب وليس بسبب الإسلام ، ففى هذه المنطقة من العالم يسود وضع يمثل تربة خصبة للإسلاميين بغض النظر عن كثرة أو قلة عددهم .السؤال :كيف تمكنوا من استخدام الدين لأهداف سياسية وإيجاد شعبية لهم .. ؟ الإجابة أن هذا التيار وجد دفعة قوية بعد هزيمة الدول العربية عام ١٩٦٧ فى حربها مع إسرائيل ، وكان للتغيرات التى حدثت فى السياسة العالمية منذ نهاية الثمانينات تأثير مباشر فى هذا الاتجاه ، فقد توصلت ندوة عقدت فى القاهرة فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٩٠ كان موضوعها تأثير التطورات فى أوربا الشرقية على المجتمعات الإسلامية إلى أن

التصالح بين العملاقين الكبيرين يمثل بالنسبة للعالم الإسلامى تحديا خطيرا ، لا يمكن الرد عليه إلا من خلال إسلام له روح جديدة .

يقول المفكر الألمانى الدكتور هانيس ديترفنتر إن تصاعد نشاط الإسلاميين منذ نهاية الثمانينات حدث فى جميع البلاد العربية ، وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة وقطاع غزة تنشط المجموعات الإسلامية مثل حماس وحزب الله منذ عام ١٩٨٨ ، وفى مصر ظهرت أعمال إرهابية ، وفى الجزائر تنشط جبهة الإنقاذ الإسلامى منذ عام ١٩٨٩ ، أما فى السودان فقد تسلم العسكر السلطة وأعلنوا أن الشريعة الإسلامية هى أساس الحكم فى البلاد ؛ مما أدى إلى تصعيد الحرب الأهلية هناك والتى اشتعلت لأسباب لا دخل للدين فيها ، وحقق الأخوان فى الأردن نجاحا بارزا فى انتخابات ١٩٨٩ ، وفى الجزائر حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامى على أغلبية الأصوات فى الانتخابات البلدية عام ١٩٩٠ وهى الانتخابات التى الغيت بعد إعلان نتائجها ، ويمكن القول : إن القوى الإسلامية تمثل الآن قوة المعارضة فى البلاد العربية ، فى حين كانت المعارضة فى الستينات تتكون من القوى القومية . وصعود القوى الإسلامية يعود إلى عوامل داخلية ..فى الأراضى الفلسطينية نتيجة الاحتلال الإسرائيلى ، وفى الجزائر نتيجة تدهور الأوضاع الاقتصادية ، وفى لبنان نتيجة الاعتداء الإسرائيلى عام ١٩٨٢ وما تبعه من احتلال دائم لجنوب لبنان .

هناك أسباب محلية لظهور هذا التيار ، ولكن هذه الأسباب المحلية لها علاقة مباشرة بالتطورات الاقتصادية العالمية ، مثل مسألة المديونية ، لذلك يستغل الإسلاميون ذلك فى مهاجمة الغرب والنظام العالمى الجديد الذى أعلن عنه بعد حرب الخليج ، لأنه لم يأت بجديد لهذه الشعوب ، وقد جاء فى مجلة « الإنسان » التى تصدر فى باريس « أن التدخل فى الشئون الداخلية وخرق السيادة الوطنية هما من مميزات النظام العالمى الجديد » .. ! وتتهم المجلة

الفرنسية النظام العالمى الجديد بالتحيز ، فهو ضد تسليح العراق ولكنه مع تسليح إسرائيل ، وضد احتلال الكويت ولكنه مع احتلال الضفة الغربية ، وهو مع الديمقراطية ولكنه ضد الديمقراطية فى الجزائر بعد فوز الإسلاميين فى الانتخابات .. !

* * *

يقول المفكر الألمانى الدكتور هاينس ديتر فنتر : إنه بعد انتهاء الصراع بين الشرق والغرب ، وحرب الخليج ، ازدادت شعبية الإسلام السياسى كبديل معاد للغرب ، وتمرد ضد سيطرة الغرب على العالم ، ونوع من الرد الإسلامى على ما يسمى بالنظام العالمى الجديد الذى أعلنه الرئيس الأمريكى بوش كهدف لهذه الحرب .

ويذكرنا المفكر الألمانى بما جاء فى البيان الصادر عن نادى روما من أنه « فى الفترة التى ستعقب الحرب الباردة ستزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء ، بين الشمال والجنوب ، وبالأخص فى البلاد العربية الإسلامية سيزداد الشعور بالظلم وغياب العدالة » .

هذا ما قاله نادى روما عن النظام العالمى الجديد .. !

* * *

يشير المفكر الألمانى د . هاينس ديتر فنتر إلى الحوار الذى نشر فى مجلة « فورن افيرز » الأمريكية وجاء فيه أنه من المعتقد أن هناك « مركزا إسلاميا دوليا » يوجه عمليات العنف كما كانت « الشيوعية الأممية » تديرها موسكو سابقا ، وهناك دلائل تشير إلى أن طهران هى هذا المركز ، وغاية ما يمكن أن تطمع فيه إيران هو تحقيق نوع من السيطرة فى منطقة الخليج ، ولا علاقة

لهذا بالإسلام ، لأن حكم الشاه كان يسعى إلى نفس الهدف . ومع ذلك فإن إيران بعد الثروة وحتى اليوم تسعى إلى إقامة علاقات جيدة مع الغرب وبخاصة العلاقات الاقتصادية ، مما يدل على أن شعارات العداء للغرب لا تمثل تهديدا حقيقيا .. !

معنى هذا أن ما يقال عن حتمية الصراع بين الغرب والإسلام هو تخويف لا أساس له ، وخطر لن يتحقق .

وإذن كيف ستكون العلاقة بين دول الغرب والدول الإسلامية .. ؟

يحذر المفكر الألمانى من عدم وجود استراتيجية مشتركة لدول الغرب لمساعدة الدول الإسلامية على التغلب على مشاكل الفقر وتزايد السكان ، والنظام الاقتصادى العالمى قائم على إنتاج التخلف .

ويحذر أيضا من أن السياسة الرسمية المعلنة لدول أوربا تستنكر نظريات العداء مع الإسلام ، ولكن التعامل الفعلى والمناخ السائد فى أوربا يؤكدان الإيمان بنظرية « صراع الحضارات » ، وعندما يجرى الحوار فى المانيا عن المنطقة المتأزمة فى الجنوب يتبع ذلك دائما حديث عن التدخل العسكرى الخارجى للجيش الألمانى (!) وليس عن إزالة أسباب الأزمات وإعادة النظر فى العلاقات مع الدول العربية ، وهناك دلائل كثيرة تشير إلى عودة العلاقة بين أوربا ودول الجنوب إلى علاقة سيد ومسود ، وفى أسوأ الأحوال قد تؤدى إلى عزل أوربا فى حصن محاط بالأسوار لحمايتها من جيوش النازحين من الضفة الأخرى للبحر المتوسط ، وفى مثل هذا الموقف من الجنوب يتحول « العدو » والصور التى تتكون لدى الرأى العام عنه إلى أدوات لا غنى عنها بالنسبة للسياسة .

الحل أمام الغرب – كما يقول المفكر الألمانى – هو أن يساعد الغرب الدول الإسلامية على حل مشاكلها الاقتصادية الناتجة عن الاحتلال الغربى ،

والسماح لهذه الدول الإسلامية بمكان فى النظام العالمى الجديد ، وعدم الاستمرار فى سياسة طمس الأسباب الحقيقية للنزاع العربى الإسرائيلى ، لابد أن يشعر العرب والفلسطينيون بعدالة الحلول التى يقدمها الغرب ، وبخاصة مدينة القدس ، ويجب أن يشعر الفلسطينيون فى الأرض المحتلة بتحسن ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية ومن الممكن أن يكون ذلك بوضع خطة للمنطقة على نحو مشروع مارشال تشارك فيه دول أوربا لإنعاش المنطقة .

أهم من ذلك أن يتعلم الغرب (أمريكا وأوربا) احترام استقلالية أصحاب الشأن فى المنطقة ، دون إجبارهم على قبول النموذج الغربى .

وأخيرا على أمريكا ودول أوربا وضع حد للدعاية المنتشرة التى تحمل العداء للإسلام وتتحدث عن صراع الحضارات .. وبدلا من ذلك تعويد الغربيين على احترام الدين الإسلامى والثقافة السائدة فى المنطقة ، وإقامة الحوار والتعاون على أساس المساواة بدل المواجهة ..

لأن الخطر الذى يهدد الغرب لا يأتى من الإسلام ، ولكن يأتى من فشل السياسة الغربية فى التعامل مع دول الجنوب ..

وقد أصاب المفكر الألمانى كبد الحقيقة ..